روايات الهلال

الغزالة

قاسم مسعد عليوة

89
U

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهيب

رئيس التحرير

عادل عبد الصمد

المستشار الفنى

محمد أبو طالب

المدير الفنى

محمود الشيخ

سكرتير التحرير

هالة زكى



الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٧٢جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٣٥ دولاراً - أوربا وأسيا وأفريقيا ٤٠ دولاراً - أمريكا وكندا والهند٤٤ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإدارة

القاهرة ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا)
ت ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدي ١١٥١١ ـ
تلغرافيا المصور ـ القاهرة ج.م.ع.
تلكس Telex 92703 hilal u n
فاكس FAX: 3625469

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٢٥٠ فلس ـ الكويت ١,٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا البحرين ١,٢ دينار- قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٢دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٢,٥ جنيه

الإصدار الأول يناير ١٩٤٩

العدد ٧٣٥ - مارس ٢٠١٠م - ربيع أول١٤٣١هـ - برمهات ١٧٢٦ق

البريد الإلكترونى darhilal @ idsc. gov. eg

بريد الاشتراكات Email : subscription_dep@yahoo.com

: محمد حجى

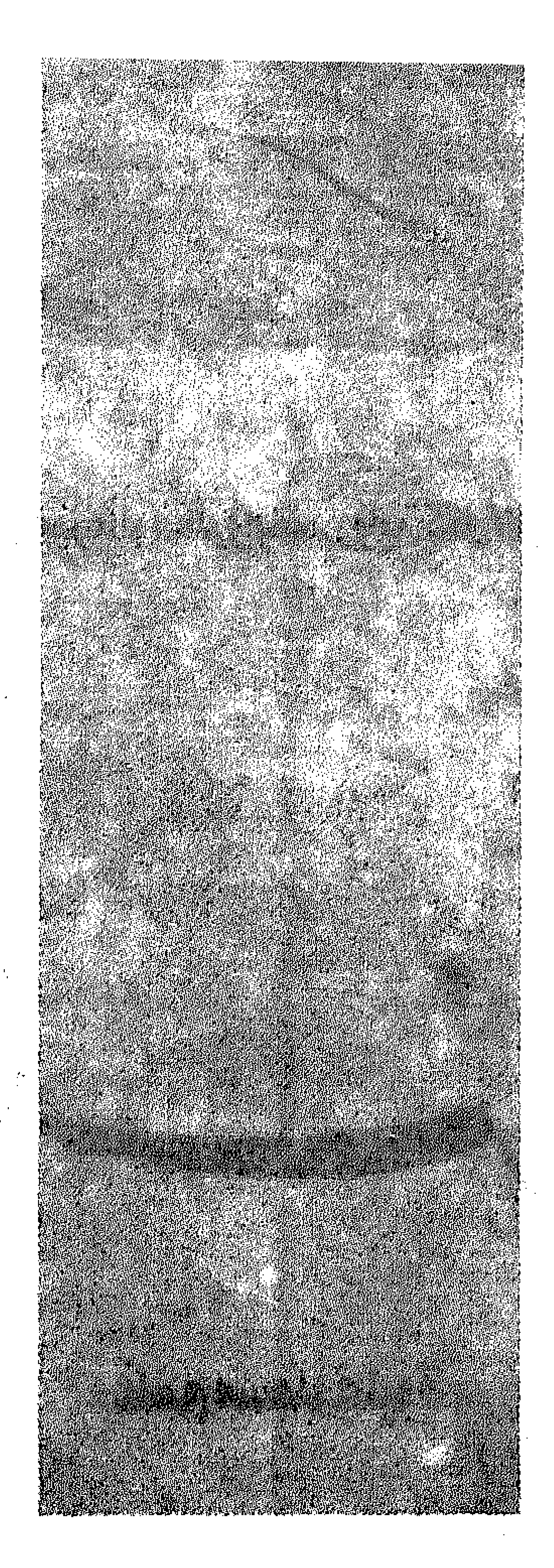
«رواية غير مألوف الروايات.. رواية ككل الروايات»



الغزالة

قاسم مسعد عليوة

«دار الهلال»



إشراف : محمود قاسم ● الخطوط : محمد العيسوى

رقم الإيداع :٥٦٣٨ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى :I . S . B . N 977-07-1395 - 3

الإهداء

إلى من يبحثون عما لا يجدون

قاسم مسعد عليوة

ولكم فى المجاز حياة

لا تخف من العويص.. ولا تفر من الرمز.

قلتُ لمعلمي: أتبعكَ

(١)

قلتُ لمُعلمي: أتبعكَ.

قالَ: حاول.

(٢)

لبستُ المُرَقَّعَة وحاذيته فنهرني:

- مَه.. ما هكذا يكونُ اللباسُ.. وما هكذا يكونُ الاتباع.

(٣)

قَدَّمَ لي خِرقةً كما تُقَدَّمُ خِلعة أميرٍ أو سلطان أو مَلِك.

قلتُ: لكنها كثيرة الخروق مهلهلة.

قال: من الخروق تنفذ، وبالهلهلة تفوز.

(٤)

كنتُ جائعاً، وكنا في الصحراء، ومنْ غاية الأفْق جرَّتْ غزالةٌ شريطاً من غبار وركضتْ نحونا. لمَّا دَنتْ أقعتْ أمامَ مُعلمي فأشهرتُ حديدة كانتْ معي وقلتُ:

- أذبَحُها ونأكلها.

فنظر إليَّ نظرةً فيها من الحزم ما يوازي ألمَ الجوع وقال:

- إنْ أكلناها فماذا عساه أنْ يتبقى لنا، وبأي شيء نمني أنفسنا؟

ثم داعب رأس الغزالة وقالَ مخاطباً إياها:

- غريرٌ هو ما يزال، فلا تأبهي له.

(٥)

رافقتنا الغزالة ونفعتنا نفعاً كثيراً. صعدتْ بنا كثبان وهبطتْ بنا كثبان. دلتنا على مفازات ما كنا لنكتشفها لولاها. أنقذتنا من ثعابين، وداستْ على

عقارب، وأوردتنا مناهلَ لم نرتشف ماءً أعذب مما فيها: وإذ نتفيأ بعض العساليج مالَ إلىَّ مُعلمى وسألنى:

- ما رأيك فى غزالتنا ؟.. نذبحها..؟

فتمنيتُ لو أنه حشى فمى رملاً ولم يسألنى هذا السؤال.

(٦)

اعترضنا قاطعُ طريق. تملاَّنا مستصغراً إيانا، ثم قال:

- أما من شىء معكما يستحقْ السلب؟

قال مُعلمى: خِرقتَانا.

فمَطَّ شفتيه وقلبهما احتقاراً، ثم رأى الغزالة فقال:

- آخذ الغزالة.

بلفظتين اثنتين ردَّ عليه مُعلمى:

- إنْ استطعتَ.

أصابنى دهشٌ كبير.. يمنعنى عنها ويمنحها لقاطع طريق؟!..

ضحكَ قاطع الطريق وهَمَّ بالإمساك بها إلا أنها بعد أنْ جفلتْ أفلتتْ. رماها بسكينٍ فانحرفتْ، بخشبةٍ فقصرتْ، بحجرٍ فطاش. قفز فوقها فمادتْ. جرى خلفها فركضتْ، ورأيتها تلف وتدور وتدور وتلف حتى تقطعتْ فى قاطع الطريق أنفاسه فقال:

- الفرار منكما غنيمة.

وغادرنا، فيما عادتْ الغزالة تتمسح بخِرقة معلمى.

(٧)

صعدَ مُعلمى بصحبة الغزالةِ كثيباً فتبعتهما.

ما إنْ تسنمناه حتى فوجئنا بهرج ومرج وعجاج. كلابُ صيدٍ وعربات جيب وأناسٌ متحفزون وبنادق.

أصابنا هلعٌ فهبطنا من حيث صعدنا ، فالكلاب كلاب الحاكم، والعربات

عربات الحاكم، والناس بعضٌ من حاشية الحاكم . ارتعد بدنى وامتقع وجه مُعلمى فيما اشتد ارتعاش الغزالة.

انسكبَ علينا ظلٌّ ثقيلٌ فرفعنا أبصارنا لنفاجأ بجرم الحاكم نفسه فوق الكثيب وفوقنا. نادانا كما ينادى الحاكم رعاياه:

ـ يا أنتما.. اتركا لى هذه الغزالة.

صمتنا.. مُعلمى وأنا.. واحتمت الغزالة بظهر مُعلمى.

قال الحاكم:

ـ خَويتْ الصحراءُ من الطرائد.. وعيبٌ أن يرانى شعبى عائداً من رحلة صيدى خائب الرجاء.

تغلب مُعلمى على امتقاعه وقال :

ـ هى لك أيها الحاكم.. ليتها تكون لك.

فعجبتُ له، منعنى عنها، ولقاطع الطريق قال إنْ استطعت، لكأنه ما ادخرها إلا للحاكم .

مِنْ مكانه أشارَ الحاكمُ لَمَنْ لا نراهم مِنْ خلف الكثيب فتسنموه، وبإشارةٍ أخرى منه اندفقوا باتجاهنا تقودهم كلابهم.

مِنْ فورها انفلتتْ الغزالةُ وعَدَتْ بعيداً عنا وعنهم وعن الكثيب. صَوَّبَ الحاكمُ باتجاهها فأخفقَ، صَوَّبَ حاملو البنادق فَرَقَّشُوا الرمالَ بطلقاتهم.

ما عدنا نرى منها سوى شريط الغبار المربوط بحوافرها.

استدار الحاكم وزأر زأرةً اعتلتْ بعدها عرباتُ الجيب الكثيبَ، رفستْ إطاراتها الرمل ثم اندفعتْ باتجاه شريط الغبار، فتعكَّرَ الهواءُ بغبار أكثف، بسببه اختفى الأفق وتغطت السماء، وغابت الغزالة وشريطها عن أعيننا.

مر زمن ثم انبثقت العربات. شقت ستر الرمل عائدة، وإلى قمة ذات الكثيب صعدت. قبل أن تنحدر إلى الوراء، ميزنا علامات الخزى على وجوه راكبيها، واليأس فى حركات أذرعهم.

لم يملك الحاكم إلا أن يكظم غيظه، وبكبرياء الحكام استقل عربةً كانت إلى جواره، ورمانا بنظرة تحقير ثم مضى.

مع ابتعاد سحاباتهم لم أدهش لمرأى الغزالة إلى جوار مُعلمى.(٢٨).

أمام بوابة المدينة سألنى مُعلمى :

(٨)

- أما زالتْ حديدتكَ معكَ ؟

ثم انحنى إلى الغزالة وهتفَ بها أن تنصرف عائدة لحال سبيلها، أبتْ فدفعها دفعاً باتجاه الصحراء، رجعت فقادها بنفسه إلى أقصى ما يستطيع.

لمَّا عاد انثنى إلى حجر مسنون فالتقطه، بعدها فرد قامته وأفرغ هواء صدره وأدخل هواءً غيره، ثم طلب منى أنْ أستعد، وبقوةٍ هتفَ بالحراس:

- افتحوا البوابة.

وإذ تنفتح ضلفتاها تطلعتُ إلى الغزالةِ فإذا بها واقفة على مقربةٍ ترنو إلينا رنو المتحسر، ففكرتُ ألا أعتب بوابة المدينة وهممتُ بالهرولة إليها، إلا أنَّ مُعلمى نظر إلىَّ بوجهٍ قاس لم أعتده منه وقال:

- اتبعنى.

في مدينة اللذة والانبساط

(١)

تساهل آمر البوابة كما لا ينبغي لمثله - حسب قوله - أن يتساهل وترفق بنا، على الرغم من غرابة ما نرتديه، و تغاضى عن الأوراق التى طلبها منا ولم يجدها لدينا، واكتفى بقيد أجوبتنا على أسئلته فى السجل الذى يمسكه مساعده. فقط أمر فجاست أصابع جنده فوق وتحت خرقتينا، لتنتهى حديدتى وحجر مُعلمى إلى المنضدة التى يجلس إليها هو ومساعده.

مترفعاً أشار إلى مساعده فمد يده إلى كلٍّ منا بوريقة عليها رقم وتاريخ وتوقيت.

قال الآمرُ:

- أربع وعشرون ساعة وتغادران.

ثم أمر جنده فرفعوا العوائق وأفسحوا الطريق.

ولم أدر كنه الابتسامة التى علقت بشفتيه لمّا أشار بأحد ذراعيه داعياً إيانا إلى الدخول.

(٢)

أول ما استرعى انتباه مُعلمى وانتباهى ازدحام الجادة العريضة بالمركبات من كل حجم ونوع ولون. واحتشاد الرصيفين المتقابلين بالمارة المتعجلين وبصور رجل مهيب ملصقة بالحوائط ومعلقة على الأعمدة.

لم يكن دخولنا هذه المدينة هو أول عهدنا بالمدن ، فأنا ابن مدينة وأحسب مُعلمى كذلك، لكنها المرة الأولى التى ندخل فيها سوياً مدينة غريبة على كلينا .

مثلها مثل المدن الشبيهة ، تغز عمائرها عين الشمس، لتتكسر أشعتها وتنز ظلالاً تطؤها الأقدام وتهرسها عجلات المركبات. ومثلما يحدث فى المدن الشبيهة حفَّ بنا الصبية والقوادون، ودسوا فى أكفنا بطاقات الحانات والمواخير، وجاء الأدلاء والشحاذون ، وحام حولنا السائقون ، وتنطع باعة التوافه.

انصرفتُ إليهم أذبهم عن مُعلمى، وأنا أعجب لهم كيف لم يلحظوا أن خرقتينا بلا جيوب.

لمَّا تولوا عنا، وخلا المكان لنا، ظللنا فيه حتى اطمأن مُعلمى إلى أنَّ أحداً لن يتبعنا. قبل أن يبدأ بالتحرك نظر إلى وسألنى:

- أتعرف وصف هذه المدينة بين المدن؟

هززتُ رأسى الجاهل أنْ لا يا مُعلم، فقال :

- مدينة اللذة والانبساط.

ثم ابتدأنا المسير.

(٣)

من جوفِ محل للعطارة جاءنى ومُعلمى ضجيجٌ وصياح ، وكنا قد اقتربنا من مدخله لمَّا ارتفع نصلٌ وغارَ فى جبين العطَّار . أصابنا رعبٌ وامتعاض فيما نظر إلينا القاتل مزهواً، وأزاحنا الشرطى ودخل.

رأيناه يعبرُ جثةَ القتيل، وسمعناه يسأل القاتل:

- لماذا قتلته؟

ردَّ القاتلُ وهو يسحب نصله:

- لم يدفع.

قال الشرطى:

- فعلها معى.

فزفرَ القاتلُ وهو يمسح النصل فى ثياب القتيل:

ـ زمنٌ ماعَتْ فيه المعايير.

جاءت عربةُ دفن الموتى. نزلَ سائقُها وفوق الجثة قال:

ـ لن أحملها حتى آخذ عطارة المحل أجرا.

فاحتج القاتل والشرطى وقالا:

ـ أليس لكلينا مِن طيبِ هذه العطارة نصيب ؟

عند هذا الحد هتفَ بى مُعلمى:

ـ هيا بنا .

فانصرفنا، ومِن جوفِ المحل عاد الضجيجُ والصياح.

(٤)

فى السوق، استحقر العامة خرقتينا، وأغروا بنا الصبيان. وفيما هم يضحكون ويتصايحون، ويشيرون بأصابع الاستهزاء إلينا ، قلتُ:

ـ الجهلُ غباء.

فطوقنى مُعلمى بذراع وقال:

ـ والعلمُ بلاء.

ثم راح يذبُ عنى وعنه أذى الصبيان.

(٥)

طفقَ رجلٌ يتحدث إلى رهطٍ من الناس عن أمرٍ غاية فى التفاهة وقعَ له. نملة رآها تمشى فوق كتفه باتجاه رقبته، وكيما لا تتكرر قصة النملة وأذن الفيل نترها بضربة إصبع وبحث عنها فوق بلاط الرصيف وسحقها بحذائه الذى هو بالمناسبة مصنوع من جلد تمساح متين.

وخرج من الحديث عن النملة التى جعلها عبرةً لسائر النمل، والتمساح الذى صُنعَ من جلده حذاؤه، إلى الحديث عن الجليل المبثوثة صُوره فى كل مكان: وبعد أن أفاض فى الحديث عن أخص خصائصه، خاض فى أمورٍ أجَلَّ فأجَلَّ، حتى كاد يزعم، بل أقدم فعلاً على الزعم، بأنه فعل كلَّ شىء،

وخَبَرَ كلَّ شيء، وفاز في كلِّ مَحَجَّةٍ، وفكر في كل ما ينبغي أن ينشغل به الفكر.

عندئذ التفتَ إلينا - باعتبارنا غريبين - واحدٌ من الرهط وقال وقد طفح على ملامحه فيضٌ من الملال:

- آهٍ من حظنا العكر.. صرنا هدفاً لمادحي أنفسهم؟

فسمعه المتحدث ومن فوره طفقَ يقول:

- كلامكَ صحيّح كل الصحة، لقد صار مادحو أنفسهم مثارَ كل شكوى، مع أنهم لو نظروا إليَّ، واقتدوْا بي، وفعلوا مثلما أفعل، لما وصلوا إلى هذا الحد، فأنا لا أمدح نفسي أبداً: ومع أنني ثري ابن أثرياء، وكريم ابن كرماء؛ ويقر الجميع بأنني جَوَّادٌ، ذو ذكاء وافر، ومكانة عظيمة، فإنني لا أذكر في أحاديثي شيئاً عن هذا كله، فالحياء والإيثار والتواضع ثلاث من الخلال التي أوقرها أيما توقير.

عندئذ مالَ عليَّ مُعلمي وزفر وقال:

- ما أسخف أن يمدح المرء نفسه.

(٦)

ملامح وسحنات القوادين والسماسرة متشابهة وإنْ اختلفت المدنُ. جذبتْ أحَدَهَم خرقتانا فاقترب وقال:

- أضعكما في مكان تتكفان فيه أثرياء السائحين وأغنياء المدينة ونتقاسم ما تحصلان عليه.

عندئذ صَعَّدَ مُعلمي فيه نظرَه وابتسم، وأعقب الابتسامة بضحكة، وكاد يُكمل الضحكة بقهقهة، لكنه تدارك فتركَ الرجلَ غارقاً في دهشته، وقال لي:

- ألم أخبرك بأننا في مدينة اللذة والانبساط ؟ .. ها قد أنالني هذا التيس بعض الانبساط.

(٧)

مررنا باثنين يتعاركان، أحدهما يقول بأزلية الفناء والآخر يقول بأزلية البقاء، وحولهما كان جمع كثيف. استوقفانا لمّا رأيانا وسألانا أى القولين أصدق ، فأشرتُ لهما أنْ وجِّها هذا السؤال إلى مُعلمى ، فكرراه عليه ، فمسحهما والجمعَ بنظره ، وقال وبحة الاستنكار فى صوته :

ـ لِمَ تشقان على نفسيكما وتُضيعان أوقات هذا الجمع الساذج؟

وبدون جهد فى التفكير أعقب:

ـ هما أمرٌ واحد.

ثم قادنى ، وعنهما وجمعهما، انصرفنا.

(٨)

نادتنا الواقفة أمام مدخل أحد البيوت، وقالت:

ـ فوق العمولة سأمنحكما متعة الاستحمام وقضاء ليلة مشتركة فى فراشى كل أسبوع إن جئتمانى بأربعة من الزبائن فى الليلة الواحدة، فما قولكما؟

فتجاهلها مُعلمى وقال لى مستكملاً كلامه القديم:

ـ .. وهذه عينة من لذائذ هذه المدينة.

(٩)

دخلنا حديقة المدينة وكانت مكتظة بالمتكلمين، وكانت الحشود تشرئب وتستمع، فيما تناثر فوق رأسينا كلام فى شئون الحرب والسياسة والاقتصاد، وكانت صور الجليل المثبتة على جذوع الشجر قد بدأت تهتز وتُنتزع، فاستهوتنى هذه الأمور وبدتْ لى سهلة ميسورة، فارتقيتُ حجراً وطفقتُ أتكلم مثلى مثلهم، إلا أن الناس رمونى بمعطوب الثمر ودقيق الحجارة، فقال مُعلِّمى :

ـ أما علمتكَ ألا تأكل إلا عن جوع، ولا تتكلم إلا عن ضرورة؟!

(١٠)

قادتنا الضوضاء وزرافات المهرولين إلى ميدان فسيح مكتظ بالناس والجنود. وكان الناس يجأرون بهتافات تندد بالحاكم وأساليب الحكم، ومنهم نساء رفعن أرغفة الخبز فوق رؤوسهن، ونساء حملن فوق كواهل نساء، وفتيان وشيوخ قبضوا أكفهم ولوحوا بها منذرين: وفوقهم رفرفت رايات ونُشرت لافتات مكتوب عليها عبارات وشعارات تطالب بإقصاء الحاكم ومَن يشاركونه، من رجال ونساء، عن سُدَّة الحُكم؛ وكانت ثمة حوائلُ من أسلاك وقواطع ومتاريس تسد عدداً من المداخل والمخارج، وفي الطرف تراصت صفوف الجنود القابضين على أعنة الكلاب والهراوات والبنادق المزودة بكؤوس إطلاق القنابل وغير المزودة.

ورأيتُ في جسد مُعلمي اختلاجات أعرفها، وأعرف ما يتبعها، وقد حدث. ارتقى بعض أشياء وخطب في الجموع المحتشدة بما لم أتمكن من سماعه، لانشغالي بدفع المحتشدين عنه حتى لا يسقط أو يصيبه أذى، لكنني لاحظتُ أنه أزاد التهاب الميدان التهاباً، وتمكنتُ من التقاط ما ختم به خطابه فقد قال:

- بوركتَ من شعب لا يفرط في حقه، ويحرص على مُحاسبة حكامه.

وكأنه نطق بما نطق لحيظة بلوغ السيل الزبى، فما أسرع ما ماج الميدان بتلاطمات الأجساد والمعادن ونهشات الكلاب وضربات الهراوات. ومن جوف الميدان وفي سمائه فرقعتْ رصاصات وتصاعدت أدخنة وظهرت عربات والتوت خراطيم مياه وقذفتْ أحجارٌ وطارت مقاعد وأثاثات، وصار الناس والجنود يتساقطون والعربات تحشر بالمجروحين ومهشمي العظام. وعلى الرغم من حرصي نالت مُعلمي ضربات من هراوة تلقاها بين حقويه وفوق ساقيه: ضربات لو مسني بعضها لهويت، لكنه تحامل عليّ وحجل، واجتاز بي الجثث والرايات واللافتات المكومة وصُور الجليل الممزقة، وأخرجني من الميدان من حيث لم ندخل.

وإذ أريض أنفاسى عجبتُ لماذا لم تَشَل اليدُ التى ضَربتْ مُعلمى، لكننى ما لبثتُ أن اطمأننت إلى أنَّ نجاتنا من هذه المقتلة هو إعجاز يهون أمامه أى إعجاز.

(١١)

بلهاثى وعَرجة مُعلمى دخلنا الجادة المتمركزة فيها مؤسسات الإدارة والحكم، عرفنا هذا من شموخ مبانيها وأسوارها وبواباتها والحراسات المكثفة حولها، قبل أن نقرأ لافتاتها الفخيمة.

وعند التقاء أحد الشوارع الجانبية بالجادة، رأينا فى ركن يكفل الظهور ويحمى من أعين الحراس رجلاً يجلس تحت صورة الرجل الجليل متربعاً فوق بلاط الرصيف وقد خاط شفتيه وعلق فى رقبته لوحةً مكتوباً عليها «أحتج» . الخيوط المُدَمَّاة دكن لونُها فبانت غُرَزُها وعُقدُها فوق الشفتين خفيفتى الزرقة من طول انطباقهما ورسمتْ لوحة تُضج بالمعانى الواضحة.

فوق رأس الرجل قال مُعلمى:

- صوت هذا الرجل يصم الآذان..

ثم نظر إلى المؤسسات المتراصة بطول الجادة وأكمل:

- .. لكن المؤسسات التى اعتادت سماع دبيب النمل صُمَّتْ عن صراخ هاتين الشفتين المُطبقتين.

(١٢)

فى نفس الجادة تقابل مبنيان. مبنى مجلس النواب، ومبنى المجلس الحكومى.

مبنى مجلس النواب قصير، مُقبب، وبه شيءُ من ملوسة، وبابه كالشق وهو فى مجمله يشبه الحِر. أما مبنى المجلس الحكومى فخشن، طويل، منتصب، والحرس أسفل منه كثيفُ كالشعر فوق الصَفَن، وهو فى مجمله يشبه الإيْر.

هكذا وصفتُ المبنيين لمُعلمي بطلبٍ منه. وعلى الرغم من أنني كنتُ جاداً ومُكدَّراً بسبب ما نالني من تعب ونال مُعلمي من ضربات إلا أن مُعلمي ابتسم وقال:

- ربما تكون قد اكتشفتَ سر التذاذ هذه المدينة وانبساطها.

(١٣)

فيما بعد الغسق، في ميدان عام بمكان قصي، مُدَّتْ شاشة عرض ضخمة انطبعت عليها صورة الرجل الجليل، وقد تكاثفت أمام المنصة التي يجلس إليها لاقطات الصوت، وملامحه هي ملامح كل الأجلاء عندما يواجهون الأزمات ويبشرون كالعادة بحلها، ولم يكن بالميدان سوى أنفار قلائل ومن بينهم كلانا: مُعلمي وأنا، وسمعناه وشاهدناه يقول:

- على الرغم من أن الوضع صعب، والمشكلات عويصة، فإنني أعتقد أنَّ العلاج ممكن وميسور، ولا أقول إنَّ الأمرَ سهلٌ جداً، فالوقت وقت التصارح، ولن تجدوا حاكماً يصارح شعبه بالقدر الذي أبديه لكم. لذا فإنني أقول لكم إنَّ الآفات قد التهمت بالفعل مزروعاتنا، والآخرون باتوا يصنعون من حبوبهم، التي كانوا يبيعونها إياها، وقوداً يسمونه الوقود الحيوي؛ ونحن لا ننتج ما نأكل أو نلبس، لأن هذه هي طبيعتكم، وأعداد أبنائنا تتزايد، وجهاز السوق لدينا مختل، وأعداؤنا يتربصون بنا الدوائر، يحاصروننا ويكسبون كل يوم صديقاً .. هل من بعد ما سمعتم مصارحة؟.. لكنني كحاكم وصديق لكل فرد من أفراد شعبي أقول لا تستمعوا إلى المأجورين والمخدوعين والقلة المندسة والغوغاء ومثيري الشغب، لا تستمعوا إليهم لأنهم لا يبغون سوى تخريب حيواتكم وتدمير مدينتكم، وأبشروا .. أبشروا يا أفراد شعبي فالصورة لن تظل على هذه الدرجة من القتامة، لأنني – من فرط انشغالي بكم وبقضاياكم - تمكنتُ من تأليف روايتين رومانتيكيتين تمجدان أصالتكم، ودستة من القصائد الملتهبة حماساً، وأتابع الآن بالجد والصرامة الواجبتين

طبع ومراجعة الروايتين، وتلحين القصائد وتوزيع موسيقاها واختيار المغنين الذين سيصدحون بها: وإنني لعلى يقين من أنكم يا شعبى المثابر ستجدون فيها العون العظيم لتجاوز الأزمة والانطلاق صوب المستقبل بخطى وثابة وقلوب مفعمة بالرضا والطرب.

عند نهاية هذه الجملة من الخطاب الذى لم تبد أن نهايته قريبة تأهب مُعلمى للانصراف فسألته قبل أن يتحركَ عن حقيقة ما شاهدناه على الشاشة وسمعناه من مكبرات الصوت:

- أهى نكتة يا مُعلم ؟

فردَّ على سؤالى بسؤال:

- وهل رأيته يبتسم؟

ثم غادر الميدان وأنا معه وفى إثرنا أخلى الأنفار القلائل الميدان.

(١٤)

جعلتُ من زندى متكأً لمُعلمى لمَّا وقف أمام المتجمهرين فى المكان القصى الخالى إلا من صورة الجليل وأنشأ يخطبُ، ولا ينى يشير إلى الصورة من حين إلى آخر، وختم خطبته فقال:

- .. أى شىء تراه سيفعله من أجلكم ذلكَ الذى أهطعتم لإرادته أعناقكم، وأخضعتم لسطوته أقداركم؟.. وهل من بادرة خير واحدةٍ تتوقعونها من ذلكَ الذى من أجله جمعتم نضار البر ولؤلؤ البحر؟.. إذا ما أصابته عطسةٌ أو لفحةٌ من هواء، وتحول إلى هر فاجاه صيبٌ، فتكوَّرَ مبلولاً فى أضيق ركن من فراشه الوثير، بأية أوامر سيأمر؟.. هل سيأمر بإعادة الحق لأهله؟.. هل سيطلب الصفح منكم؟..أم سيجأر فى أطبائه: داوونى.. عالجونى.. أنقذونى، ثم يأمر أمرى جنده: ابحثوا عمن عكَّرَ الهواء فأعطسنى، وبَرَّده فأمرضنى؟..

هذا ما لا أقطع بأنه تاد عنكم.. لكنني أقطع بأنكم ما عدتم بقادرين على الامتثال.. تظاهركم يشي ويفصح، ومسلكه يكشف ويفضح.. فماذا أنتم فاعلون بعد التظاهر؟

عندئذ دهم المكان جندٌ كثيف، واختلط الحابل بالنابل، فعمدتُ إلى معلمي أحميه، وانكفأت عليه لئلا تطوله ضربات الهراوات، لكنها طالتني وطالته، وبأكفهم رفعونا من خرقتينا، وحشرونا بين من اقتنصوهم في صندوق واحدة من عرباتهم.

(١٥)

في السجن قرنتنا ـ أنا ومُعلمي ـ الأصفاد، وجمعتنا وآمر البوابة القضبان.

سأل آمرُ البوابة مستنكراً، وقد غمَّه ما آل إليه حاله:

ـ أهذا جزاء إحساني إليكما؟

فردَّ مُعلمي وهو ينظر إلى الضوء المنهمر بين قضبان النافذة الصغيرة:

ـ كم مِن مُبتلى في سمعه وبصره ونطقه تخلص مما ابتلى به وهو يئن من قسوة ضربات السجان..

وتنهد وبصره ما زال معلقاً بضوء النافذة ثم قال:

ـ .. السجون مشاف..

بعدها التفت إلى الآمر المغموم وأكمل:

ـ .. وإنني لأرجو أن تخرج من هنا بسمع سليم، وبصر حديد، ولسان قويم.

وكأن ما رجاه مُعلمي قد تحقق من توه ، فقد رقتْ ملامح آمر البوابة، وتحرك وجهه باتجاه النافذة فغمره الضوء الباهر، وهتف مخاطباً نفسه:

ـ كم هو بشع ذلكَ الذى ظنناه جليلاً.

ونهض فصلصلت القيود في يديه وقدميه.

(١٦)

قال المحقق:

ـ أنتما متهمان بتحقير الجليل، وعقوبة هذه التهمة فصل الرأس عن الجسد.

ومتهمان بمناوأة الحكومة، وعقوبة هذه التهمة فصل الرأس عن الجسد.

ومتهمان بالحض على كراهية نظام الحكم، وعقوبة هذه التهمة فصل الرأس عن الجسد.

ومتهمان بتكدير الأمن العام، وعقوبة هذه التهمة فصل الرأس عن الجسد.

ومتهمان بتأليب طبقة على طبقة، وعقوبة هذه التهمة فصل الرأس عن الجسد.

ومتهمان بترويج شائعات تمس سمعة أعضاء الحكومة، وعقوبة هذه التهمة فصل الرأس عن الجسد.

ومتهمان بإثارة الشغب فى مجتمع المدينة، وعقوبة هذه التهمة فصل الرأس عن الجسد.

ومتهمان بمقاومة السلطات، وعقوبة هذه التهمة فصل الرأس عن الجسد.

وطفق يوجه إلينا التهمة إثر التهمة حتى ظننا أنه ما عادت هناك تهم فى سجلات القضايا لم توجه إلينا، لكن جعبته مع هذا لم تنضب، ومع تلاطم التهم وثبات العقوبة بدأت أشعر باللذة، وبدأتْ انقباضة حالى فى الانبساط، وأحسبُ أنَّ مُعلمى قد سبقنى إلى هذه الحال. توقف المحقق هنيهة وسلط عينيه علينا كأنما يسألنا أن نتكلم، ولمّا لم نتكلم وجه إلينا تهمة جديدة:

ـ أنتما متهمان بعدم التعاون مع جهة التحقيق، وعقوبة هذه التهمة فصل الرأس عن الجسد.

وكانت مشاعر اللذة والانبساط قد بلغت عند مُعلمى وعندى إلى منتهاها فطفقنا نضحك ونقهقه كما لم يحدث معنا من قبل. وإذ يقتلعنا الجنود مِن أمام المحقق جاءنا صوته الحانق:

ـ أنتما متهمان بإهانتى، وعقوبة هذه التهمة فصل الرأس عن الجسد.

وعند الباب سمعناه يعنف كاتبه:

ـ يا ويلكَ لو أغفلتَ تدوين تهمة واحدة.

ولم ننقطع عن القهقهة.

(١٧)

عندما اقتادونا إلى ساحة تنفيذ العقوبة، وانتظم المنفذون فى تطبيق المراسم، وبدأتْ الطبول تقرع، وصُفَّ حاملو البنادق، حطم شعبٌ كثيفٌ أسوار السجن فتحررنا والسجناء. وفهمنا أنّ الثورة قد قامت فى المدينة، وأنَّ الجليل لم يعد جليلاً. والجميل أن آمر البوابة اصطحبنا بعد أن تخلص مِن أصفاده إلى بوابة المدينة، وهناك حرص على استرجاع الوريقتين المدون عليهما تاريخ ووقت دخولنا، ولم ينس أنْ يعيد إلىَّ حديدتى وإلى مُعلمى حجرَه وودَّعَنا مبتسماً، لكننا لم نبتسم إلا بعدما واجهنا الصحراء ولمحنا الغزالة واقفة على كثيب بعيد تنتظرنا.

درس في الشجاعة

(١)

لم أغفلْ عن مُعلمي لحظة فتبعته في تجواله داخل المدن، وعند شقه للبرية، ولازمته إذا ما حاذى شطآن البحار.

في المدينة التي نسكنها، تأبطني وعند أول حارةٍ استوقفني.

قالَ:

ـ مثلكَ قلتُ أريدُ أن أتلقى العلمَ من الله دونما وسيط، فصعدتُ إلى سطح منزلي وأزحتُ الدجاجَ والبطَّ ثم رفعتُ رأسي إلى السماء فرأيت سحاباً يتحرك، وطيوراً تطير، وشمساً تجاهد ألا تغيب، فهتفتُ: يا الله علمني علماً أميزُ به على سائر العباد، عندئذ سقط بين عيني بُرازُ طيرٍ فأغمضتُ عينيَّ وتفهمتُ تماماً أول دروس الإيمان.

(٢)

احتوى معلمي كتفيَّ الاثنين بذراعٍ واحدةٍ وقال.

ـ مثلكَ أجهدتُ نفسي بحثاً عن النقاء الخالص فلم أجد أفضلَ من الصمت الذي لا يخامره أي صوت.. أتوافقني؟

قلتُ:

ـ أوافقكَ.

قالَ:

ـ إذنْ أنتَ لم تعرفْ النقاءَ بعد.

(٣)

عارياً دخلَ علينا قاعة الدرس فبهتْنا.. أنا وسائرُ تلاميذه.. لكنَّه بكامل جسْمه واجَهنا، وبعينيه الصافيتين تفحّصنا، وبجهُوري صوته أعلمَنا:

ـ أوّلُ دروس اليوم.. الشجاعة.

(٤)

أثِمْتُ بنقَائِى وطـهْـرِى وثملتُ وسكرتُ فَتَـطَـوَّحْتُ ولمُعَلِّـمِـى فى البَـرِيَّةِ قلتُ:

ـ أنا أنقى منكَ يا مُعَلِّم وأطهرُ.

فَرَبَّتَ على رأسى ومشَّطَ بأصابِـعِه شعْرِى وقالَ:

ـ طريقُ السالكين محكومٌ بالشهـوةِ والهوى.. ومحْفوفٌ بالمَحْوِ والسُكْرِ والانْبِسـاطِ.

(٥)

فاجَأَتِى بضحكةٍ لم أعْهَدُها منهُ، ثم أمَرَنِى:

ـ انضُ عنكَ هلاهيلكَ وتعر.. أحِبْ.. فمَنْ لا يُحِبُّ، كائنٌ بلا رُوْحٍ وجَسَدٌ بلا ظل .

قالَ هذا ثم عَرَجَ بى صَوْبَ مَضْـرَبِ صاحِباتِ الرَّاياتِ والبَيارِقِ.

متردداً خَجِلاً أخذتُ أنْزَعُ ما علىَّ، بينا كان هو قد تَـعَـرَّى تماماً.. وسَبَقَنِى.

(٦)

رأيتُه جالساً يئنُّ وينوحُ بالدمعِ الهَتُونِ:

ـ حين أنظرُ إلى المَدَى أراك.

حين أهبطُ إلى جَوْفِى أراك.

فلماذا لا تغادرين بَصَرِى أيتها الجميلة؟

ما أدهشنى ليس كلامُه فقد تعودتُه منه . ما أدهشنى هو الدُنُّ المائلُ تحت يده . والخمرُ السائلُ حتى قدميه.

هتفتُ غير مصدقٍ:

ـ يا مُعلم.. هذه خمر؟!

نظرَ إليَّ بوجهٍ بائسٍ منكسرٍ وقالَ:

ـ ومنْ أين تراني آتي بدموعي؟

(٧)

أوقفني أمام البحر وقالَ:

ـ خابَ مَنْ ركبَ المَوْجَ ولم يُخاطرْ..

.. خابَ مَنْ ركبَ المَوْجَ وفكّرَ أن

يخاطرَ ولم يخاطرْ..

.. ونجَا مَنْ توجَّهَ أفقَ الماءِ وبجسده

خاطَر.

ثم خَلَعَ مَدَاسَه وخرقته وداسَ فوقَ الموج وباتجاه الأفقِ البعيدِ مَشَى.

بَهَرَني باستقامة قوامه وثباتِ خطوهِ، لكنَّ حُزْناً جَارِفاً ما لبثَ أنْ تَقَحَّمَني لمَّا تَذكَّرْتُ أنَّهُ لمْ يقلْ لي «اتبعني» .

جوسق الصداقة ورياض الأصدقاء

(١)

بعد أن أنهى مُعلمي درساً طويلاً عن معاني الصداقة ومعادن الأصدقاء، نهض تلميذ وقال:

ـ لكنني أتوق يا مُعلم للعيش منفرداً.

فرد عليه بأطيب عبارة:

ـ العيش الانفرادى هو الذى أوجب إيجاد الصديق، فلماذا تتوق إلى نقطة البدء؟

(٢)

بينما كنا نجوس بين الدروب، استوقفنا رجلٌ بيدهِ عَريضَةٌ.

تَهَيَّبَ الرجلُ مُعلمي فأسلمَ العريضةَ لى، وقال:

ـ أسألكما إضافة توقيعيكما إلى هذه العريضة كيما نرفعها إلى الحاكم ليُعْمِلَ أمره.

بعينيهِ أمرنى مُعلمى أنْ اقرأ «اقرأ وأسمعنى» ، فقرأتُ:

«أتى المدينةَ أبقٌ يَدَّعِي الزُهدَ، ويخطبُ فى المجالس بما لم نعهده فى خطبائنا.. يقولُ الشعْرَ من فوق المنابر، ويرتاد الحانات.. يرقصُ على صدح الموسيقى، ويدخل فى أحوال لم نعتدها.. يأكلُ الزبيبَ والفستق واللوز والجوز والكستناء، ويلتذ بأكل الثوم والكراث والبصل تلذذُه بأكل الفاكهة» ، «فافتتنت به العامةُ والتفَّ حوله حشدُ من الناس كثيف...»

عند هذا الحَدِّ أوقفنى بإشارةٍ مُعلمى، وسألَ:

ـ أو فعل؟

أجاب الرجلُ:

ـ وصارَ خطرُه عظيماً.

فعلَت البشاشةُ وجهَ مُعلمى، وقال :

ـ هذا الأبقُ جدير بصداقتى.

مِن فوره اختطفَ الرجلُ العريضةَ وفَرّ.

(٣)

سأل أحدهم مُعلمى:

ـ مَنْ أصادق؟

أجاب :

ـ مَنْ يغفر زلتكَ ويقبل علتكَ.

(٤)

قَدمَ إلى مجلسنا اثنان. أحدُهُما مُحْمَرُّ الوجه نافرُ العروق مِن شدة الغضب، والآخرُ شاحبُ البشرةِ منكس الجبين.

جَرَّ الأولُ الثانى خطوتين ووقف وأوقفه أمام مُعلمى:

ـ نحن صديقان يا مُعلِّم، لكنه باعنى لعدوى.

فتفرس فيهما هنيهةً حتى تيقنتُ أنه قد سبر تمام غوريهما، ثم أطرق طويلاً حتى ظننته قد نسى أمرهما، لكنه حينما رفعَ رأسَه قال:

ـ غبيٌّ مَن يتحالفُ مع العدو ضد الصديق.

دافعَ شاحبُ البشرة عن نفسه:

ـ لكننى ما قابلتُ عدوَّ صديقى إلا لتخفيف وطءِ إغاراته عليه.

رَدَّ مُعلمى:

ـ ولو ..

ثم حول وجهه بما يعنى أنه قد انتهى من هذه المسألة.

(٥)

اغرورقت عينا رجل حزين أمام معلمى وقال:

- صديقى سبب شقوتى وسر بلائى.. ينام عندى وأنام عنده. فينظر إلى امرأتى ولا أنظر إلى امرأته.. يخون عهوده، ولا أخون.. ويتنكب لوعوده، ولا أفعل.. ويؤذينى أمام الناس، ولا أبادل أذاه بأذى ..

وأطرق رأسه وهو يسأل :

- أقطعه لما يسببه لى من ألم، أيها الرجل الطيب، أم أصله ؟

عندئذ مَدَّ مُعلمى كفاً مَسَّ بها كتف الرجل، ثم قال وقد بان التأثر فى صوته:

- تأمل وجه صديقكَ وهو نائم فإن رأيتَ فى ملامحه ملامحَكَ وإن شاه منها ملمحٌ أو تبدل آخر، فاقبض على صداقته، ولا تفرط فيها. فالصديق للصديق كسيخ مَوْقِدِ الفحم، تنطفئ نار الموقد ما لم يعهده السيخ بالتقليب.

(٦)

من أقوال مُعلمى فى مديح الصديق:

- التقاء الصديق بالصديق كالتقاء الضوءِ والظل بالهواء والماء والتراب.. به ينبت الطلع وبسببه يتحقق النماء.

- ما أصعب التخلص من قيود العيش، وما أيسر التحرر من الصديق.

ومن أقواله فى ذم بعض الأصدقاء:

- يجرع بعض الأصدقاء أكؤساً أترعت حتى الفيض غمطاً وإنكاراً.

(٧)

صار هيجان فى الحى كبير ، فبرزنا من كوةٍ نستطلع ما يجرى ، فإذا بناس كثيرين يهرولون أزواجاً أزواجاً وقد بدا عليهم فزعٌ عظيم ، ومن آخر الجادة لاحَ شخصٌ يطاردهم بطلقاتٍ نارية تنقذف من رشاش لا يتوقف.

لمّا ارتطم بعضها بحافة الكوّةِ دخلنا. مبهوراً بالنجاة قلتُ :

- ما الذى يجرى؟!

لم ينظر إلىّ ولم يجبنى. فقط قال محدثاً نفسه :

- صدقَ مَنْ قال : ألفُ صديق قليلٌ، وعدوٌ واحدٌ كثيرٌ.

ومِن الخارج توالى امتزاج صرخات الصرعى وتتالت أصوات الطلقات.

(٨)

أوقفنى مُعلمى وسط ميدان فسيح ، كالشمس تفرعت عنه طرقٌ خمس.

فى أولاها رأيتُ عجوزين تتعاكزان على بعضيهما البعض وتمضيان بخطى شديدة البطء لكنها مستمرة : فى الثانيةِ تجاورت طفلتان وانهمكتا فى رسم أشكال وتخطيطات طباشيرية فوق الأسفلت: فى الثالثةِ راحَ ولدان يقودان درَّاجتيهما وقد بسط كل منهما ذراعاً على كتفِ الآخر: فى الرابعةِ تخاصر مخموران وكلما سقط أحدهما أنهضه الآخر: أما الطريق الخامسة فكان يمشى بها جنديان كتفاً لكتف وساقاً لساق.

نظرَ إلىَّ مُعلمى ، بعدما لُمْلَمْتُ طرفى ، نظرةً تحضُّنى على الانتباه إلى ما أوشكتْ شفتاه على النطق به. ففعلتُ وتلقيتُ ما نطق به بوقارٍ وتؤدة.

قال:

- لكل طريق يلزم صديق.

فأعدتُ النظرَ إلى الطرق الخمس طريقاً طريقاً.

(٩)

فى حديقةٍ وارفةِ الظلال رأينا ثلةً مِن شبابٍ تشربُ وتمرحُ وفى حالةٍ مِن الانبساط عظيمة، فسألهم مُعلمى عن سرِّ انبساطِهم، وكنتُ أعلمُ أنَّه يعلمُ إجابة سؤاله، وأنه ما أرادَ مِن سؤالِه إلا أنْ يُسمعنى الردَّ بأذنىَّ.

انبرى شابٌ :

- نحتفلُ يا مُعلم لأننا لم نحنث. وحافظنا على عهد الصداقة.

وصار نقرٌ على طبلٍ ونبرٌ على وترٍ. فطوَّحَ مُعلمى بذراعيه ، وهزَّ جسدَه ، وانخرطَ فى رقص بديع شاركه فيه الشباب وحاولتُ أنْ أحذو حذوهم، وما

زلنا فى رقصنا حتى حضرت الحالة، وعَمَّ السرور، وتجمهر عددٌ كثيفٌ من رواد الحديقةِ وحراسِها.

لَمَّا أوقف التعبُ الجميعَ، كان مُعلمى الأكثر انتباهاً فشَدَّ مِن خرقتِه فوق جسدِه، وقال مخاطباً المتجمهرين:

- هنيئاً لكم يا أهل هذه المدينة بهؤلاء الأصدقاء.

ثم خاطبَ الثلةَ الفرحةَ اللاهثةَ وقالَ :

- ما أبَرَّكم يا شباب، فأنتم تحفظون ما ينبغى أنْ يُحفظ.

ومالَ إليهم وراحَ يحتضنهم شاباً شاباً.

(١٠)

فى المنتزه العام مررنا بجوسق يجلس فيه اثنان. الأول ماهقُ البياض خَشِنُ الملبس، والثانى داكنُ البشرةِ فى خزٍ وقصب، وكلامهما يخالف ما هما عليه مِن مودةٍ وانبساطِ حال.

قالَ الأولُ:

- سخاؤكَ سخفٌ ومضيعةُ مال.

وقالَ الثانى:

- وبخلكَ دناءةٌ وصغرُ نفْس.

فردَّ الأولُ:

- أنتَ غافٍ عن العواقبِ.

وردَّ الثانى:

- وأنتَ قاصرٌ فى الهمةِ.

أدهشنى جمعهما بين الهدوءِ والسكينةِ وما ينطقان به مِن تضاد. فتريثتُ حتى نبعد ثم قلتُ لمعلمى:

- علمتني يا مُعلِّم أنَّ الخلاف يُفضي إلى المنازعة، والمنازعة توجبُ المباغضة، فكيف اجتمع لهذين الرجلين الضدان.. الخلافُ والوئام؟

فربَّتَ مُعلمي عليَّ وقال:

- الصداقةُ جوسقٌ تستظلُ به الأضداد وتستروح.

(١١)

فتح مُعلمي باباً شديدَ الضيق لكأنَّه الكُوَّة، فإذا بقاعة مُكتظة برجالٍ سُودٍ وسُمرٍ وصُفرٍ وبيضٍ وحُمرٍ، وبوجه كلٍّ منهم مَلاحةٌ ليستْ في غيره.

جاهدَ مُعلِّمي لدخول القاعة، فقلتُ مُشفقاً عليه، ومُستَكثِراً جهده:

- البابُ ضيقٌ والمكانُ مكتظٌ، وما به من فسحة لمزيد.

فالتفتَ إليَّ وقال:

- هذه رَوْضَةُ الأصدقاء، وما ضاقتْ يوماً عن صديق.

وبحركتين أو ثلاث اندفسَ بينهم، فيما ظللتُ عندَ عتبةِ البابِ أحاول.

في البصر والبصيرة

(١)

على رأس تلة، وأمام الأفق المنسرح، كنا نجلس. مُعلِّمي يتأمل وأنا أجتهد.

بعد بُرهةٍ رأيته يلتفت نحوي ويقول:

- تيقظ.

ولمَّا كنتُ متيقظاً بالفعل، قلتُ:

- أنا يقظٌ يا مُعلِّم.

قال:

- عينك يقظى، وقلبكَ يغطُّ غطيط الساهين.

(٢)

أدخلني مُعلمي كهفاً تستدعي ظُلْمَتُه نزع الرموش والأجفان.

سألني:

- هل ترى؟

أجبته:

- لا يا مُعلم.

قال:

- فاخرج إلى الشمس إذن وانعم بعماك.

(٣)

من ظلمة الخارج برزَ إلى مجلس مُعلِّمي مُريدٌ مُنْهَكٌ وجثا أمامه وعفَّر وجهه بالتراب، فأوقف مُعلمي الدرس وأقامه والتفتَ إليَّ وإلى الحاضرين، كأنما يُشهدنا على برهان ما كان يدرِّسه لنا. وسأله:

- ما بك؟

بوجهٍ أسيفٍ وصوت تُصفرُ فيه الريحُ قال المُريدُ:

- ما عدتُ قادراً يا مُعلِّم على تحمل مشقات ما كلَّفتني به من رياضةٍ ومجاهدة.

فأقامه، وبنظرة واحدة جمعنا، ثم قال:

- أبصروا يا مَن أنهكتكم الرياضة والمجاهدة إلى هذا البائس المُعَنَّى، واعلموا أن التحملُ يفوق الاجتهاد ويحتويه، فبدونَ تحمل لا يكون اجتهاد، وبدون اجتهاد لا تكون بصيرة.

(٤)

استدار مُعلمى فجأة وهتف بى:

- هل عميت؟.. تتبعنى بعينين مفتوحتين؟!

مفزوعاً أغلقتُ عينيَّ، وكانت عينا مُعلمى المفتوحتان على أقصى اتساعهما آخرَ ما أبصرتُ.

قلتُ:

- لكنك يا مُعلِّم تفتح عينيكَ على أقصى اتساعهما.

فتركنى ومضى مُخلِّفاً صوتَه:

- كى يتقحمهما القذى فتقودنى البصيرةُ وتقودكَ.

(٥)

فى الصحراء رَحَّبَ بى مُعلمى وقالَ:

- أنَّى دَخَلتَ ففى بيتى متسعٌ لكَ.

أجَلتُ ناظرَيَّ فيما أمامى فلم أبْصِرْ سوى الرمل والسماء.

قالَ:

- لو دقَّقْتَ لأبْصَرْتَ المطبخَ والسرير وبيتَ قضاء الحاجة ومصافى الضوء وملاقفَ الهواء ومزاريب المطر.

خَشيتُ على عقل مُعلمى فقلتُ :

ـ لكن لا أسوار أمامى ولا جُدُر ولا أبْصِر نوافذ أو أبواب أو سُتر.. وما الحَاجَة إلى مزاريب فى صحراء لا طلَّ فيها ولا مَطر؟

قالَ :

ـ لا يُضاهِى عَيَّكَ سوى عَمَاكَ.. أغمضْ عينيكَ تُبْصِر كلَّ شىءٍ

(٦)

تحت سماء تنيرها النجوم اللوامع، وفوق بطحاء لا تُحَرِّك سكونَها ريحُ ولا يُعكِّر هدوءَها صَوْتٌ، نَدَّتْ عنى تنهيدةُ ارتياح ما كنتُ لأظن ـ مِن فرطِ خفوتها ـ أنها ستلفتُ انتباه مُعلمى، لكنه التفتَ وقال بخفوتٍ أشدَّ:

ـ لا تنظر إلى الكون بغير عين النقص.

قلتُ بنفس النبرة:

ـ لكنَّ الاكتمالَ مُبْهِرٌ يا مُعلِّمْ؟

قال:

ـ الاكتمال يوهن الهمَّة والنقصُ يثيرها.

(٧)

فى السوق قال لى مُعلمى من تلقاء نفسه:

ـ سأقول لكَ قولاً قاله مُعلمٌ فى الأزمان الخوالى.. البصيرة كالبصر يجب غضها عن مساوئ الناس.

(٨)

مِن زُقَاق إلى الجادةِ التى هممنا بمغادرتها خرج اثنان، مبصرٌ وكفيف. كلاهما كان يخاصرُ الآخرَ فلا ندرى أيهما يقودُ رفيقَه. تفادتْ أقدامُهما عثرات الجادة وأوْضارها، قدمٌ تنتقلُ بحذاءِ قدم. ومِن الدكاكين برزتْ عطايا الخيرين ومُدَّتْ باتجاه الكفيف واستقرتْ فى مخلاةِ المبصر. لمَّا مرَّا بنا لم

أميزُ فيهما سوى العيون، فعينا المبصر مفتوحتان وعينا الكفيفِ مَسْمُولَتان، أما النعال والأسْمَال والملامح فواحدة، جلدٌ وقماشٌ وإهاب.

بعد أنْ تجاوزانا اتخذتُ سَمْتَ العارفِ وقلتُ:

- لا غِنى للضريرِ عن البصير.

فنظر إليَّ مُعلِّمي، تلك النظرة التي أتمنى معها لو ساختْ الأرضُ من تحتي وابتلعتني، وأكملها بقوله:

- ما زلتَ أيها العيي بمنأى عن إشراقاتِ أهل الطريقةِ بمسافاتٍ وفواصل.

لم أقدر على مخاطبته بلساني فرجَوْته بعينيَّ أنْ صَحِّحَ لي ما زلَّ به لساني، فقال:

- حاجات البصير موصولةٌ بحاجات الضرير.

وفي البعيدِ أبصرتُ الاثنين وقد تماهيا في بعضيهما البعض لدرجةٍ صعبَ عليَّ معها فصل أيهما عن الآخر..

تمام اكتمال المرأة

(١)

مررنا على جماعة من الرجال يتكلمون فى المرأة، فقال واحدٌ:

- المرأة قطة ناعمة الفراء حادة البراثن.

وقال ثان:

- المرأة عصفورة جميلة الألوان عذبة التغريد.

وقال ثالث:

- إنما هى بقرة ولود وحلوب.

وقال رابع:

- بل هى خنزيرة شبقة لا تكف عن التقام الرمم.

ولما طال جدلهم، واحتد الخلاف بينهم، قال بعضهم:

- نحتكم إلى هذين الغريبين.

فاتجهت الأبصارُ إلينا.

سألونى، فأصابنى العى، فسألوا مُعلمى فإذا بى أرى ملامحه ترق، وإشراقة وجهه تزيد، وببطء قال:

- المرأة ليست قطة أو عصفورة، ولا هى بقرة أو خنزيرة..

وبصوت غاية فى الرقة قال:

- المرأة أقحوانة.

فلكأننى شممتُ أعطرَ أريج ورأيتُ أنصعَ بياض فى أقحوانةٍ نبتتْ بيننا بغتة: ومع أننى لا أعرف من الأقحوان غير اسمه، ولا أعرف له رائحة أو لوناً، أقسم أننى رأيتُ فى عيون الرجال أنهم رأوا ما رأيته، ومثلى بالأقحوانة انبهروا.

(٢)

من غريب ما سمعته من مُعلمي:

- المرأة والرجل كل منهما اسفنجة الآخر.

(٣)

لمّا كنتُ ومُعلمي بالقرب من المنتزه الغاص بالأيك والمستروحين، حفتْ بي امرأةٌ وغمزتني بلحظها وأشارتْ برأسها بما أفهمني مرامها. فخايلني بعض من زهو، ربما لأنها تخيرتني دون مُعلمي، وربما لأنها على حظ وافر من الجمال الفتان. كرّرَتْ رنوها باتجاهي، وحركتْ للحيظة إصبعاً بنأمة استدعاءٍ خفية فتلظى بدني وهفتْ إليها نفسي، فالمرء لا يلقى بيسر امرأة سهلة المنال كهذه تَطلبُ ولا تُطلب.

استمهلتُ مُعلمي ورجوته أن يأذن لي ويتخير أيكة ريثما أعود، ثم حثثتُ الخطوَ وراءها فاجتازتْ المنتزه والسوق وجاست وسط العمائر إلى أنْ توقفتْ أمام باب بيتها. بعد أنْ أمسكتْ بقفله استدارتْ وواجهتني فتأهبتُ لمداعبةٍ منها، أو لفظة إغواء، أو سردٍ لشروطٍ، أو طلبٍ لسعر، لكنها بأعلى صوت صرختْ في المارة:

- أنقذوني من مخالب هذا الذئب.

وبأبشع ملامح راحت تزأر وتهيجهم عليَّ.

بنظرة العارف تأمل مُعلمي ما بي من رضوض ولهاث، وهز رأسه وابتسم كأنما يقول «ما توقعته حدث» ، فقلتُ مبرراً سوء حالي:

- المرأةُ لغز.

فقال:

- لكل لغز حل، ولكل حل مفتاح، ويا بؤس من فقد مفتاحه، فقفل لغز المرأة يستعصي على الكسر.

(٤)

كنا فى الصحراء، وكان الصفاء يغمرنا، ولم يكن بنا تعبٌ أو لغبُ، فجاءتنا سقسقة طير فتتبعناها، فإذا بنا أمام واحة ريانة فى قلبها غدير. رُمْناه فبُهرنا بمرأى نسوة يغنين وقد كشفن عن سيقانهن وهن يملأن جرارهن، وحولهن غزلان تمرح، والطير فوق أفنان الدوح يصدح.

من فوره هرول مُعلمى إلى الغدير فاتحاً ذراعيه وأنا فى إثره أفعل مثلما يفعل، فإذا بالنسوة يصمتن ويختفين، وبماء الغدير يغور، وبالواحة ـ بما فيها من دوح وغزلان وطير ـ تتلاشى.

غرزتُ عينىَّ فى صفرة الرمل أسفل قدمىَ وسألتُ مُعلمى:

ـ أيعقل أن يكون كل ما خضناه سرابٌ فى سراب ؟ .. وإذا كان، فكيف فاتك إدراك كونه سراباً ؟ .. وكيف لاح لى وانقشع ما لاح لكَ وانقشع ؟

ولأنه كان مغموراً بالصفاء ومازال فقد صعَّدَ تنهيدة أعرفها، وسهم ببصره إلى حيث لا أصِل ولا أقدر، ثم أجاب بما ظننته غير متصل بأسئلتى:

ـ تمام الصفاء تحققه النساء.

بعدها التفتَ إلىَّ وابتسم:

ـ فى أول مدينة نذهب إلى ماخور.

وبهمة استأنفنا المسير.

(٥)

كان ظلام وهرج ومرج وتزاحم فى الساحة التى دخلناها، وجنود يضربون من يقبضون عليهم ويجرُّونهم جرَّ السوائم. وفى الأعلى أطل وجهُ حسناء كفلقة القمر من خلف شفوفٍ مسدلةٍ فوق نافذةٍ نصف مفتوحة.

احتذى مُعلمى الشعاعَ النحيل الهابطَ من جبينِ الوجه المطل من عل، وصَعَّدَ التنهيدة التى أعرفها عنه، وقال:

ـ المرأة انعتاق ومخاطرة.

وارتقى الشعاع ، وأنا وسط هرج ومرج الساحة مذهول.

(٦)

عند حافة المدينة كانت امرأة تمشي داخلة إليها، ومن خلفها قطارٌ من الرجال، ولا تني ترنو إليهم بين الفينة والفينة وهم راضون متنعمون، فابتسمتُ إلا أن مُعلمي بدا غاية في الجد وهو يقول:

ـ المرأة حادية الرجل.

(٧)

سرني منظر امرأة حُبلى تحتضن رضيعاً وتتعلق بذراع رجل ، وعلى شفتيها استراحت ابتسامة رضا وانبساط حال. ظننتُ أنني من دون مُعلمي قد استأثرتُ بما رأيتُ، غير أنه فاجأني بتعليق بهرني. قال:

ـ تقول المرأة حين تحب وتنجب: الآن تم اكتمالي.

فى الحب والصبابة

(١)

لمُعلمى صبوات تستعصى على الحصر. منها ما لم أعشها معه، ومنها ما وقفتُ على أدق دقائقها. كثيراتٍ هن مَن صبا إليهن ونال منهن وطرَه. معهن يقرُّ ويهدأ. وإذا ما أقبل علىَّ أعطانى من ذوب حكمته الكثير. وعلى قلة مَن قابلن صبابته بالصدِّ، فقد أوجدنه، ولوعنه، وأدخلنه فى حالات من الشجن والتتيم ما عهدته منه إلا معهن. ومنهن مَن جعلنه يهيم هيام المدله الوله، وأفقدنه بعضاً من رشده أو رشدَه كله. وكم روعتنى الأحوال التى يكون عليها إذ ذاك.

كادت نفسى تذهب شعاعاً ذات مرة من فرط ما آتاه من أفعال لا يأتيها إلا مَن به جنة، فقد ضرب رأسه فى حوائط البيوت، ودقها بأحجار الطريق، ومزَّق الخِرقة عن صدره، ولولا أننى منعته لشق صدرَه بسكين التقطها من سنَّان ليخرج قلبه ويقدمه للمحبوبة الواقفة فى الشرفة تنظر إليه ولا تتكلم.

بعد أن أفاق قلتُ له:

- يا مُعلم.. الحب يؤذيكَ ويروعنى، فامتنع عنه ما دامت هذه عواقبه.

عندئذ شخص ببصره إلى البعيد وقال:

- أن تعيش يعنى أنْ تحب، وكما أنه لا عيش بدون جهد ومشقة، فكذلك لا حب بدون أذى ومضرَّة : وإذا كان العائش يستسيغ جهد العيش ومشقته، فإن المحب عما يلاقيه عَمِى.

فانطبقتْ فمى لأننى فهمتُ أنه إنما يُعلْمُنى أننى لستُ بعائش.

(٢)

بين النساء الرائحات والغاديات سألنى مُعلمى:

ـ أحببتَ ؟

أجبتُ:

ـ أحاول.

قال:

ـ حاول، وإلا هلكتَ.

وسألَ من سمعَ حوارَنا:

ـ أحببتَ ؟

أجاب:

ـ فوق الحصر.

قال:

ـ ما أحببتَ.

(٣)

جاءوا إلى مُعلمي بثلاثة ممن أضناهم الوجد وشَفهم الجَوَى وقالوا: لكل منهم محبوبة من النساء غابت عنه أو غاب عنها وندم، فعنف الأول وطفق يوبخه:

ـ يا غَوِيّ .. أما علمتَ أنَّ القلوبَ لتصدأ مثلما يصدأ الحديد ؟ .. لا تقعدنْ عن محبوبتكَ ولا تكسلنْ عنها.. اسع إليها. اطو من أجلها الوهاد وجُزْ الفجاج وارْتَقِ الذرى. جِد في البحث عنها فلعلكَ واجدها. اشحذ همتكَ إليها فلعلك ملاقيها.. لكن أنىً لكَ هذا إنْ لم يك بينْ حناياك قلبٌ مجلو من كل صدأ.. قلبٌ حَرَّقه الشوق وصقلته المحبة.

وخففَ من لهجته وهو يخاطب الثاني:

ـ صِلْ محبوبتكَ في كل وقت. لذ بها وحث الخطو في إثرها. لا تكِلْ نفسَكَ لنفسكَ لحظةً، لئلا تتلهى عنها بما فيكَ فتضيعُ منكَ المحبوبة وتضيع.

ورقق من حديثه مع الثالث حتى لكأنه يناجيه:

ـ أيها المحب ترفق، فللحب سلمٌ ودَرَج. لا تصعدنه وثباً فتنزلق بكَ قدماك وتغيب المحبوبة عن عينيك. خذ إليها ضوءكَ، وأوقد من أجلها شموع روحك. أنشدَها مزامير حبكَ، ثم اصعد إليها خطوة فخطوة.. درجة فدرجة.. فإذا بها أمام الباب ومن أجلكَ تفتحه، وإذا بكَ تواجهها بعدما هداكَ الضوءُ وهدهدتها موسيقاك. ولفرط فرحتكَ آنذاك.. أرجوك ألا تنساني.

ثم صرفهم ومن معهم وطفق يردد لنفسه:

ـ النساء.. النساء.. النساء.. النساء.

(٤)

اقتربتُ منه بعد واحدةٍ مِنْ صبواته المتحققة. ولَمَّا كان في أملح هيئة رأيته عليها، خاطبته:

ـ يا مُعلم.. خبرني عن العشق.

فقال بأرخم صوت وأعذب نبرة:

ـ العشق حال يضم كل الأحوال.

وفرد ذراعيه بامتداد كتفيه وأخذ يدور حول نفسه ويلف، يدور ويلف، يدور...

(٥)

طافَ معلمي بشوارع وحارات وأزقة المدينة مشعثاً مغبراً يبحثُ عن إحدى مُعذباته؛ وكنتُ أمشي خلفه، أتبعه بحيث أراه ولا يراني، فالتقته امرأة عابرة فاستوقفته وقالتْ له:

ـ إنْ كانت بكَ غُلمة جعلتُ من جسدي مطفأة لها. وإنْ كنتَ قد كلفتَ بمن أوجدتكَ لخلة فيها أخبرني بها لأصطنعها لكَ. وإنْ كانت برنوةِ لحظٍ أو بسمةِ ثغرٍ قد سبتكَ فبين شفتي ورموش عينيَّ مفاتيح حريتكَ.

لسخاء وبلاغة هذه المرأة لسان وجسد توقعتُ من مُعلمي أنْ يرد عليها ويستجيب، لكنه نظرَ إليها نظرة المُغيَّب، وحاد عنها وتخطاها واستمر يطوف

بشوارع وحارات وأزقة المدينة، وأنا أتبعه حتى أصابنى الكلال وتمنيتُ لو أعلنتُ له عن وجودى وأوقفته.

(٦)

بعد أنْ قضى مُعلمي وطراً، قال لى وكان منبسط النفس منكشف السريرة:

- تعال أعلمكَ مِن الحب أشياء.. الحب محطة تسبقها محطات، وتليها محطات، فلن تصل إلى الحب مِن غير هوى وشوق وحنين، فإنْ وصلتَ فبعده الألفة والشغف والغرام، فإنْ أفرطتَ فى الحب فأنتَ عاشقٌ، وإنْ ألمَكَ الهجر فأنتَ مُتيم، وإنْ كاد يسلبُ منكَ عقلكَ فأنتَ هائم، فإنْ استلبه كله فأنتَ - ولا تتحسر على نفسكَ - مجنون.

وابتسم ابتسامة الخبير:

- وللحب أحوال وما أكثرها أيها البائس، منها الولع، وأنتَ مُولَع مادام تعلقكَ بالمحبوب شديداً، فإنْ اقترنَ ولعكَ بالهمِّ والكربِ فهو الشجنُ قد أتاكَ، وإنْ استتبتَ الشجنُ ألماً تنشأ اللوعة، ومع شدائد الشوق تظهر التباريح، فإنْ صاحبَ الحب كتمانٌ حتى ضاق الصدر به فهو الجوى، ومع الحزن العميق قد يتحول الجوى إلى كمَد، فإنْ انفعلتَ بحزنكَ فهو الوجدُ، فإنْ تسبَّبَ الوجدُ فى شدة التحير فأنتَ وله، فإنْ أغرقكَ الولهُ فقد بتَّ كلفاً.

ثم قهقه حتى بانت نواجذه:

- .. ومع هذا قد يحل الحب بالمحب إلى الجنون دون أنْ يقف فى أية محطة، وقد يصير كلفاً بغير رؤيةٍ منه للمحبوب.

(٧)

قلتُ لمعلمى:

- مادامت سَفرَة الحب مبدوءة بالهوى، فهذا أدعى لعدم القيام بها أو

الرجوع عنها، فالهوى سقوط.. وما سمي الهوى هوى - كما أخبر مَن خبروه - إلا لأنه يهوى بصاحبه في المهالك. وكما تعلم يا معلم قيل الهوى هوان.

فاعترت مُعلمي غمامة كتلك التي تعتريه عندما يكتشف غباء أحد تلاميذه، لكنه أزاحها بجهد بانت أماراته عليه، ثم شهق شهقة بالغة العمق حتى خلتني سأنحشر في إحدى طاقتي أنفه. لمّا زفرَ ما شهقه وقرَّ قال:

- إنما الهوى هوا، فهل أنتَ بمستغنٍ عن الهوا؟

(٨)

كالطيف المنير مرَّتْ هيفاءُ من أمام مُعلمي فتدله بها ودَنِفَ . ولمَّا لم يجد منها إلا الصدودَ فقد أوْجِدَ حتى شَفَّ، وأدخله هواه في أحوال غير الأحوال، وأتى بأفعال لا يأتيها عاقل، فلمَّا أفاق استأذنته لأفاتحه فيما يقلقني منه كلما دهمته حالة حب، فلمَّا أذنَ لي قلتُ:

- يُخيَّل لي يا مُعلم أنكَ تكون ذاهب العقل حين تحب.

فابتسم مكدوداً متعباً وقال:

- بالحب لا نعقل، وبالعقل لا نحب.

ولم أعرف لماذا أحسستُ وقتها أنه إنما يمزح، على الرغم من أنني أكاد أوقن أن صدَّ أي محبوب له يقربه بالحتم من حافة الجنون.

(٩)

خرج مُعلمي من إحدى غرامياته مجهداً مضعضعاً، لا ذاقَ رضاباً ولا طعمَ شهداً. ومن فرط ما تأجَّج جَمٌ وما عاد بقادرٍ على الإتيان بما كان يقدر عليه ، فكان حرياً بي وحاله هكذا أنْ أعمل على تطبيبه وتوفير الأوقات والظروف التي تكفل راحته واسترداده لعافيته، وأنْ أمنع عنه تلاميذه وزواره، وهذا ما فعلته. فلمَّا برء ممَّا أصابه واستعاد أزمَّة بيانه، احتشد حوله شعبٌ كثيفٌ من الوَلهي المكتوين بنيران الجوى يواسونه ويواسون أنفسهم.

قال أحدهم:

ـ هكذا هو حال المحبين يا معلم.. يأس وعذاب وحسرة.

وقال آخر:

ـ لا يخلع الحبُّ على أبداننا سوى كسوة الذلّ والهوان.

وتبعه آخر:

ـ سياط الحبّ لاسعة، وسهامه قاتلة.

وإذ يهم غيرهم باستكمال التوجع، الذى يظنونه مواساة، أوقفهم معلمى ببسطة كف ثم قال:

ـ أيها الموجودون الولهى.. لا تفتئتوا على الحب بالباطل، فما أمسك الحبُّ سوطاً وما رمى سهماً، وما أورثنا اليأسَ والعذابَ والحسرة، وما أذلنا أو ألقى بنا إلى هوة الهوان، فكل ما منه تشتكون من صنع المحبوب القاسى. وهو قاس لأنه مثلكم، من نفس طينتكم جبل، وعلى ذات أرضكم عاش.

ثم نهض ورنا إلى البعيد واتخذ سمته حينما يهم بقولٍ يريده أنْ يثبت فى آذان سامعيه، ثم قال وقد أشرقَ مُحياه:

ـ .. الحب كالمطر يهمى على الصحراء فيُربيها، وعلى الجَلمَد فيُرعشه، وعلى الميّتِ فيُحييه. لا يلومن أحدكم محبوبَه وإنْ أذاقه ما يظنُّه مُر العذاب. أحبوا محبوبيكم وإنْ هجروكم. أحبوهم لأنه لابُد لكم أنْ تحبوا. أحبوهم ولا تكونوا عبيداً لهم. لا تسلموهم معاصمكم فتندمون، لأنَّ الحبَّ انطلاق. ارفلوا فيما تظنونه عذاباً، ولو تعلمون هو النعيم المستحيل، ارفلوا فيه وتنعموا تنعم المحبين الأحرار. أيها الموجودون الولهى.. ما دمتم قد ذقتم حلاوة الحب فأحبوا، وإلا ما استحققتم أن تكونوا محبين.

من أقوال معلّمى

(١)

أجلسنى مُعلمى مجلسَ العلمِ وقال:

ـ ستٌ ثلاث أؤدبكَ عليها ما تيسر لى ولك مِن طاقةٍ ووقت:

خدمةُ الخلق..

واستخلاصُ الحق..

واتباعُ الطريقة..

وقال :

ـ خدمةُ الخلق عطاء..

واستخلاصُ الحق واجب..

واتباعُ الطريقة ضرورة..

وقال :

ـ خدمةُ الخلق عطاءٌ بلا مكابرة..

واستخلاصُ الحق واجبٌ بلا عَسَف..

واتباعُ الطريقة ضرورةٌ بلا ضرر.

(٢)

وقال لمَّا رأى انبهارى بما لديه:

ـ الحَميَّةُ لا الفَتْرة..

والصَّفْوَةُ لا الكَدْرَة..

وغِنَى الفَقْر لا فَقْر الأغنياء..

ـ الحَميَّةُ أنَفَة..

والصَّفْوَةُ خُلُوص ..

وغِنَى الفَقْرِ اكْتِفَاء ..

وقال:

- الحَمِيَّةُ أَنَفَةٌ بلا خَشية..

والصَّفْوَةُ خُلُوصٌ بلا عكارة..

وغِنَى الفَقْرِ اكْتِفَاءٌ بلا انحناء.

(٣)

وعلى سبيل الرمز أمسكَ بثلاثِ فسائل وقال:

- أزِحْ حَسَكَ تُرْبَتِكَ كيما أغرس هذه الفسائل الثلاث..

فهذه من جقل سخاء..

وهذه مِن غُوطة رضا..

وهذه مِن بطحاءِ صَبْر..

وقال:

- لا تطرح فسيلةُ حقل السخاءِ إلا جُوداً..

ولا تثمر فسيلةُ غُوطةِ الرضا سوى القبول..

ولا تُعطيكَ فسيلةُ بطحاءِ الصبْرِ غير الجَلَد..

وقال:

- لا تطرح فسيلةُ حقل السخاءِ إلا جُوداً لا يُنتظر معه عوَض..

ولا تثمر فسيلةُ غُوطةِ الرضا سوى قبولٍ لا ينفع معه رَفْض..

ولا تُعطيكَ فسيلةُ بطحاءِ الصبْر غير جَلَدٍ لا يستقيم معه روَع.

(٤)

بوجه مُقْمِرٍ طفق يقول كلاماً كثيراً:

قال:

- لا تزه زَهْوَ الفرس ، ولا تته تيه الطاووس.

وقال :

- الإفراط في الظن متلفة للوقت.

وقال:

- إنْ كان معكَ الترياق، فهل تشرب السم؟

وقال:

- من كانت العزلة ملاذه، كان الخزى قرينه.

وقال:

- اتبع الهوى واعص ما شئت.

وقال:

– الجلاء في التخفي.. والسكينة في الاضطراب.

وقال : الغفلة حَزَازَة قلوب.

خيل إليَّ أنني أسمع غطيطاً تأكدتُ أنه صادرٌ عني لمَّا انتبهتُ إلى أصابعه تشدني من خِرقتي ، وتقيم رأسي المنكفئة فوق صدري . رفعتُ بصري إليه، فقال بلسان المتحسر :

- النوم خلة أهل الغفلة .. انهض .. انتهى الدرس.

فنهضتُ ونيرٌ من الأسى يُطَوِّقُ عنقي.

رجال شائهون

(١)

مدعى الطريقة

كنا وقت الدرس حينما دخل علينا رجلٌ شديدُ الهزال ممتقعُ الوجه. قالَ وكانت جوارحنا معلقة بالمعلم تأخذ عنه ما يجود علينا به:

- أنا أيضاً مُعلمٌ وصاحبُ طريقة.

سأله معلمى:

- فأين طمأنينتك؟.. وأين تلاميذك ولا أقول أتباعك؟

قال:

- طمأنينتى فى نفسى، وتلامذتى سآخذهم من هؤلاء المحيطين بك.

فردَّ عليه معلمى:

- كذبتَ، فلو كانت طمأنينتك فى نفسك ما امتقعت بشرة وجهك، ولو كنتَ قادراً على جذب تلاميذى إليكَ ما كنتَ بلا تلاميذ وأتباع حتى الآن.

فازداد وجه الرجل امتقاعاً، وحفَّ به التلاميذ مستهزئين.

(٢)

الدرويش الذى قال أعطيانى بعض قوت

دخل علينا رجل بقدمين حافيتين يعلوهما الوسخ، وكفين اسود لونهما، وساعدين وزندين جعلت فوقهما هوام الطير وأمنت. وكانت له لحية ملبدة تهبط إلى خرقته المخرقة وتتدلى حتى حزامه المجدول من الليف ، وفوق اللحية راحت تتحرك صعوداً وهبوطاً جماعات من القمل وحشرات مستدقة لا أعرف لها نوعاً ولا اسماً. وبين كثافة اللحية وشعر الرأس المغطي يطين له

هيئة ولون القار اختفت ملامح وجهه تحت قشف وقشور بسماكة حراشف ظربان التلول.

أما العطن والعفن فقد غمر المكان وعمنا منذ دخل علينا.

قال الرجل:

- أنا درويش فأعطياني بعض قوت.

صحيح إن صوته قرّ في دواخلنا وفهمناه ، لكن النتن الذى فح من جوفه أزاد من العطانة والعفونة المحيطتين بنا حتى لكأنه حين نطق تغوط أو ضرط في وجهينا. انقلبت معدتي فقئتُ فيما انفتل مُعلمي إلى الممر ونادى على سائر تلاميذه فجاءوا هرولة ليدهم القيء بعضهم ويقبض الآخرون على بطونهم أو يكتمون أفواههم أو يسدون أنوفهم.

أشار مُعلمي بما فهمنا منه أنه يأمرنا بدفعه صوب الحمام ففعلنا، ومعلمنا معنا. جلجلناه من مكانه بصعوبة لأننا لم نرد أن نلمسه وما كانت أيادينا لتقدر على ملامسته، وإنْ أردنا. بمحاصرتنا إياه وجهناه صوب الحمام حيث جرؤنا على فك حزامه وتمكنّا من تخليصه من خرقته فاستلمها نفر انهمك في تنظيفها. وما بين مقاومة منه وفتور أمضينا وقتنا معه نناصله ويناصلنا إلى أن صببنا الماء عليه صباً، ونثرنا المطهرات فوقه نثراً. وإزاء مقاومته ونفوره مما استشعر أننا فاعلوه به تكالب عليه عدد منا فقيد حركته وتطوع اثنان ففشخا شدقيه وثالث فقرش أسنانه، وبينما هوى بعضنا على أجامه بالمقصات والشفرات، انهمك عدد منا في إزاحة الأوساخ وصرعى الهوام من فوق البلاط إلى المجارير. وانتهز آخرون الفرصة قبل الانتهاء من تشتيب أجامه فبادر بالاندفاس تحت الأنشاش بغية التخلص مما قد يكون علق بأجسادهم من أدران وهوام.

بعد أن هيطنا عليه بالمناشف أبعدنا عنه مُعلّمنا وتمليناه فإذا به قد استحال إلى آدمي مثلنا.

أمرني مُعلمي فجئت بمرآة وما كنت لأدرى وأنا أضعها أمام عينيه أنه سيصيح هذه الصيحة التى لم أسمع لها مثيلاً. صيحة هى مزيج من صيحات المتفاجئين والمبهورين والمستحسنين والخائفين، وبلغت من العلو حداً لم يَرُجّ المرآة بين قبضتى فحسب بل رَجّتنى ورَجّت جميع التلاميذ وجدران الحمام، ثم ما لبث أن أزاحنا جميعاً، وانفلت من مُعلمي، وفر مسرعاً إلى شوارع المدينة. من فورى سارعتُ وسارع التلاميذ بالعدو خلفه، إلا أنه كان باتجاه الفلاة يمضى عارياً. هتف بنا مُعلّمنا فتوقفنا، ثم دنا منا وحاذانا، ثم شاركنا التحديق فيه إذ ينوب بعريه ونظافته وجوعه في الصُفرة الشاسعة. بعدها مال مُعلمي إليَّ وسألني:

ـ ما قولكَ؟

فرنوتُ إلى الخرقة المبلولة في يد التلميذ الذى يجاورني وارتج على القول، وما زلتُ للآن أبحث عما كان ينبغي أن أجيب به على سؤال مُعلمي فلا أجده.

(٣)

جامع الجواهر

بالقرب من بئر وردناها، لنستبرد ونغتسل ونشرب، بزغ من السراب البعيد شبحٌ. لمَّا دنا، رأينا فيه رَجُلاً جفت شفتاه، وغطى الوحل ساقيه وساعديه، وتشققت كوعاه، ودَميَت ركبتاه، وعلت الخدوش بشرة وجهه، وأحاطت به هالةٌ من ذباب الصحراء؛ غير أنَّ الجواهر المتلألئة بكل لون كانت معلقة بعنقه، متدلية إلى صدره، مطوقة لخصره، ومحيطة بأصابعه وزنديه.

ظننّاه مُقبلاً علينا، إلا أنه عبرنا والبئرَ دونما التفات.

استوقفه مُعلمي على مسافة منه، ليتوقى خبيث رائحته ويسلم من أذى ذبابه. سأله :

- يا رجل.. حققتَ بنا ولم تسلّم، فما بالكَ تشقُ على نفسكَ بحمل كل هذه الأحجار.

فردَّ عليه الرجلُ بجفاءٍ وكِبرٍ يداري بهما ما هو عليه مِن وهن:

- لعلكَ أعمى.. إنَّ ما تسميه أحجاراً إنْ هو إلا نفيس الجواهر.

بادله مُعلمي جفاءً بجفاءٍ وكِبراً بكبر. وأظهر له، اشمئزازه مِن شكله ورائحته، ثم قال:

- الأعمى مَن يكون الماء قيد خطوة منه وهو صاد متسخ، فلا يغترفُ منه ما يروى ظمأه ويزيل وسخه.. ثم قل لى.. ما فائدة هذا النفيس، بلونه وبريقه، وقد أحنى رأسكَ، وأدمى جسمكَ، وأوحل ساقيكَ وساعديكَ؟

اجتهد الرجلُ أن يظلَّ ثابتاً، وقال ومِن الذبابِ ما أكل مِن عينيه ووقف علىَ شفتيه ومنخاره:

- ألا يمكن للجواهر أنْ تغوصَ فى الوحل؟

أجاب مُعلمى:

- بلى.

قال الرجل:

- ألا يمكن للجواهر أنْ تزيّن مفارق الجبال؟

أجاب مُعلمى:

- بلى.

على ما به مِن انحناء ووهن ووسخ، ابتسم الرجل مزهواً، وقال:

- هذا جواب سؤالكَ، وأنتَ مَن أجاب..

فأبطلَ مُعلمى زهوه بابتسامةٍ مغايرة تلالأت، مِن فرط اتساعها، أسنانُه بما غطى على تلالؤ جواهره، ثم قال بصوت فيه غلظة:

- ما أوهاه مِن جواب، وما أرداه مِن تعلل..

وشفع غلظةَ الصوتِ بنظرةِ غضبٍ وأردف:

ـ جواهر الأحجار أتفه فى صنعها على الأرض من الوحل وهامات الجبال.

ثم ألان من صوته ورقق من نظرته:

ـ التفت يا هذا إلى ما أنتَ عليه مِن ضعف ووسخ وسوء حال، وخفف عن نفسك ما تثقلها به تسلم.

لكن الرجل لم يُبد اقتناعاً، ومضى منحنياً بأحجاره ووسخه وذبابه إلى أنْ ابتلعه السراب.

بعد أن أتممنا الاستبرادَ والاغتسالَ والارتواءَ، حملنا ما قدرنا عليه مِن ماء البئر ومضينا، لنجد الرجلَ بعد بضعة فراسخ جثةً مُلقاة يتناهشها الطير، وكان الطيرُ مِن حُسن الفطنةِ أنْ التفتَ إلى التقام اللحم وأزاح عنه الجواهر.

(٤)

العَتُلُ الباطش

كغريبين مضينا فى المدينة، شارع يُفضى بنا إلى شارع، وميدان إلى ميدان، حتى جنَّ الليلُ، وأضيئت الأنوار، وعُجَّتْ الشوارع بالمارة.

تحت لافتة ملهى ليلى أطاح عتلٌ باطشٌ بمجاوريه، فتوقفنا نستطلع.

احتج بعضٌ ممن نهض، فرمى بهم إلى أسفلت الشارع.

هائجاً ملتاثاً بدا.

زأرتْ سيارات وهى تتوقف، خشية الاصطدام بالمتدحرجين أمامها، ولوح سائقوها بأذرع ساخطة، فما كان منه إلا أن قلب السيارات بسائقيها وعطَّل المرور.

اندفع صوبه حارس الملهى فَدَقَّ عنقه، والمارة فأرداهم. ألقيتْ عليه الحجارة والقنانى والقوارير فاصطدمتْ به وارتدَّتْ دون أن يصيبه منها

أذى. نفخَ جنديٌ فى صفارته فشاطه، وأطلقتْ باتجاهه رصاصات، فراغ منها حتى فرغتْ خزاناتها. هرول إليه حاملو هراوات وسكاكين فقصم ظهورَ مَن أمسك بهم، وكسر أذرع وأفخاذ مَن فروا منه.

تحولت الساحة أمام الملهى إلى مقلب للسيارات ومرقد للجثث الساكنة والمنتفضة.

أمام كل هذا الهول وقفنا. مُعلمى فى المواجهة، وأنا بظهره أدعى التصالب.

رفع مُعلمى رأسه إليه وخاطبه مستحقراً:

- انظر ماذا فعلتَ بجبروتك أيها العُتُل الباطش.. كأنكَ والموتَ فى منافسة.

فقهقه العُتُلُّ قهقهة ليس بينها وبين الزئير من فارق:

- الموت ؟.. ها ها ها.. ليتحدانى الموتُ إنْ قَدِرَ.

ما كاد يُنهى جملته حتى سقط منفارقاً الحياة؛ وبطيئاً بطيئاً أخذتْ قشفات الأسفلت، التى انفلقت وتطايرت من ثقل جرمه، تهبط فوق جثته وتستقر.

مثلى مثل المتزاحمين جميعهم تعجبتُ وحِرتُ لسقطته المفاجئة، وإذ أدير باصرىَّ بين جثته وجثث الصرعى، لاحت منى نظرة إلى وجه مُعلمى فانتشلنى بطمأنينته مما أنا فيه وقال:

- لا تعجب مما رأيتَ.. يقهرُ الموتُ مَن يزعم أنه له ندٌّ.

لما تبعني مُعلمي

في منطقة المستنقعات أشرتُ إلى الاتجاه الذي رأيتُ في جفافِ سبخاته ما يُؤمِّن مسيرنا.

نظرَ إليَّ مُعلِّمي مستفسراً ومخوِّفاً. فتجرأتُ عليه وعلى نفسي وقلتُ قبل أنْ أتقدمه:

- لكَ يا مُعلِّم الحصباءُ والبقعاءُ وجلاميدُ الجبال ورمالُ الفلوات ، أما السبخ الناز فهو لي وأنا أدري به.

كان بعضٌ من حبور قد تقحّمني، فها أنذا أخدم مُعلِّمي بشيء أتقنه.

مددتُ له يديَّ فلم يمد لي يديه، ولم يُسلِّمْ لي أيهما. لُمْتُ نفسي، وكاد فؤادي ينفطر لولا أنه تبعني. خطا خلفي، وبصمته البليغ تبعني.

أطاشَ سروري صوابي فهتفتُ أُسمعه وأُسمع الأكوانَ وما خلفها:

- هذا يومُ سعدي يا مُعلِّم.

غير أنها خُطوات ونالتْ منِّي ارتجاجة رأيتُ من خلالها ذراعي مُعلمي تميدان وقوامه يقصر، فقفز قلبي إلى بلعومي وصرختُ:

- يا مُعلِّم..

ولأنَّ من الحقائق ما يعلن عن نفسه، فقد تيقّنتُ من أننا إنما نسوخُ في سبخة هي دبقٌ وملحٌ وطين.

من فوره فَشَّ العطنْ وثقُلَ الهواءْ وتداعتْ حشراتُ ما كنتُ لأظنْ أنَّ لها في الحياة وجوداً، وظهرتْ جحافلٌ من جنادب وصراصير وبراغيث ونمل يطيرْ وآخر يمشي، وتلاطم من حولنا ما لا حصر له من الأغشية السميكة والخراطيم الدقيقة والهُدْب اللواسع.

هلعْتُ وخفْتُ فقنتُ، بينما كان مُعلمى رابط الجاش ثابتاً فى غوصه، وظلَّتْ ملامح وجهه على انبساطها لا تُنبى عن جزع أو استهوال أو هلع.

رجوته:

- دلنى يا مُعلّم على طريقة الخلاص.

فنظر إلىَّ ولم يتكلم ، فيما تماس السبخ وأطراف خرقتينا ، ومن فوقنا هامَ ناموس ورفرفتْ فراشات وزنَّتْ يعاسيب وحوَّم بوم، ومن باطن السبخة اشرأبتْ حيات ، وفوق أديمها زحفت ديدان ويرقات. وإذ أهشُّ بكفىَّ المرتعدتين ما يعلونا وأذبُّ ما يتسلقنا ويقتربُ منا ، ظلَّ مُعلِّمى مُحافظاً على ثباته وهدوء جَنانه ، فى حين هرولتْ إلى حواف السبخة عظاءات وأورال وحرابىُّ، وتقافزتْ جُرذان وجرابيع، وأتانا من الأحراش عواءُ ذئاب ونباح كلاب.

وصل السبخُ إلى سُرَّتينا، ففكَّرْتُ فى فرارٍ انقطعتْ سُبُلُه، وغفران حَرَّمْتُه على نفسى لتوريطى مُعلِّمى فيما هو فيه ، وأيقنتُ أنَّ الهلاكَ واقعٌ واقعٌ، واحترتُ فيما يبديه مُعلِّمى من قوة احتمال، وتمنيتُ لو أنَّ السبخة ابتلعتنى فداءَ مُعلِّمى. وبينما أنا فى حالى هذه إذا بجذبةٍ من قبضة مُعلِّمى لزندى. ملهوفاً نظرتُ إليه فإذا به يُسلط عَينيه فى عينى ويقول:

- هذا جزاء مَن ينقاد لمَن لا يعرف أسرارَ الطريقة.

غُصَّ حلقى، فقد أدركتُ أنه إنما يعيِّرنى بغفلتى وجهلى.

وإذ يصل السبخُ إلى عنقينا، قال:

- عيناك مفتوحتان وما هما بمفتوحتين.

ولمَّا وصل السبخُ إلى حواف ذقنينا أمرنى بصوت تغشته حشرجة الاختناق:

- افتحهما.

مع يقيني من كونهما مفتوحتين إلى حد الجحوظ، امتثلتُ لأمر مُعلِّمي، وما كان لي، وقد مَسَّ الضبخ شفتيَّ، إلا أنْ أمتثل.

ما إنْ فعلتَ حتى وجدتني ممدداً على الكليم، ورأيتُ عيني مُعلِّمي تمسحان وجهي، وكفه الشافية فوق جبهتي، وانساب صوتُه رقيقاً حنوناً داخل أذني، وببطء المستيقظ لتوه ميزتْ سؤاله:

- ماذا فعلتَ بي وبنفسكَ في منامكَ.. يا أحمق؟

مديح ما لا يصلح معه سوى المديح

(١)

أعادني معلمي إلى مرآتي التي غبَّشْتُها وأزاحَ بعضاً مما طمَرْتُها به من طينٍ لازبٍ وجيرٍ لاهبٍ ثم قالَ:

- لا.. لا تُصدِّق ما تَهْجِس به نفسكَ.. أبداً.. ما كانَ الجسدُ يوماً خطيئة.

(٢)

مررنا برجلين يتجادلان وقد تماسكا تأهباً للعراك.

قال الأول :

- كُنْ روحاً ولا تكنْ جسداً.

وقال الثاني :

- بل كُنْ جسداً ولا تكنْ روحاً.

فنظر إليَّ مُعلمي وقال بسنٍ ضاحك:

- أرأيتَ حُمقاً في حياتكَ أبلغَ من هذا ؟

ثم أتى بإيماءةٍ من رأسه تأمرني باتباعهِ والكفِّ عن الالتفات إليهما.

(٣)

خلع مُعلمنا خرقته وأمرنا فخلعنا خرقنا ، وصرنا في حجرة الدرس عرايا.

منا مَن ضحكَ، ومنا مَن خجلَ، ومنا مَن دارى بكفيه عورته.

بطريقته المعتادة قال:

- لا تذهبوا بظنونكم كل مذهب..

ثم ثبَّتَ عينيه على عيني كل واحد منا، أو ثبتنا نحن أعيننا على عينيه، وهو يقول:

- .. فقط أريدكم أن تثقوا بأجسادكم، وألا تستهينوا بها أو تهونوا من شأنها..

ثم بدأ يضغط على مخارج كل لفظة ينطق بها:

- .. إنْ كان أمر أجسادكم عليكم هين، فلماذا تقيدون أنفسكم بها ؟ ..

ثم جهر بصوته:

- أجسادكم أنتم .. أنتم أجسادكم.

ثم ختم الدرس القصير بحَزمِه الذى لا يُقاوَم:

- ارتدوا الخرق.

فارتديناها.

(٤)

اشتكى الحضور لمُعلمى رجلاً قالوا إنه كلما جاء المجلس أقلقهم بمبالغته فى التطهر، فإذا مَسَّ خرقته أو بدنه كفٌ أو كوعٌ أو إصبعُ قدم، أو لفحَ وجْهَه نَفَسُ أحدهم، خشى أن ينْجُس، وأتى مَن أفعال التأفف ما يُنغِّص عليهم مجلسهم؛ وحكوا أنه كثيراً ما تباهى بكُلفة المال والوقت اللذين ينفقهما من أجل البُرْء من النجاسات التى يصيبونه بها: فلمَّا جاء الرجلُ غَيَّر مُعلمى الدرسَ، واستهلَّ الدرسَ الجديدَ بسؤال وجهه للكافة:

- هل توجد أرضٌ بلا نجاسة؟..

وما لبث دون أن ينتظرَ جواباً أنْ خَصَّ الرجلَ بحزمة من الأسئلة المشهورة إجاباتها:

- حينما كنتَ، يا ذا المسلك الغريب، جنيناً، أما تغذيتَ فى بطن أمك، وأنتَ بعد علقة فمضغة، على الدم؟ .. واللبن الذى امتصصته فرواك

وأشبعك، ألم يستخلصه ثدى أمك من بين فرثٍ ودم ؟ .. وطعامك الذى تغذيت وتتغذى به، ألم ينهض على طين أو يلغ فى دم ؟ ..

ثم رقق من لهجته وهو ينظر إلى جميع الجلوس:

ـ .. وهل الطين والدم إلا نجاسة ؟ ..

ثم عاد إلى الرجل، الذى شحب لونُه، واستكمل حزمة أسئلته بسؤال أخير، أوصله إليه وإلى الجميع ببطء وهدوء:

ـ .. فلم ادعاؤك ، يا ذا المسلك الغريب، التميز فى الطهر، والنجسُ محتويكَ ومتغلغلٌ فيكَ ؟..

ثم أبدل طبقة صوته فأرعدَ حتى زلزلَ الرجلَ ورجَّ الجلوس ورجَّنى، فلما كان الرجل قد سقط من هول الزلزلة فإنه قبض على خرقته وشدَّه إليه وصب الكلام فى وجهه صباً:

ـ فلتعلم أيها الدعىُّ أنَّكَ والمحيطين بك فى هذا المجلس من درجات الطهر كالأرض وأقصى ما يصل إليه بصر من أفلاك السماء، هُم فى أعلى سديم، وأنتَ بقعر أحط وهدةٍ موحلةٍ فى أنجس بقعةٍ من الأرض: فتوقف عن ادعاءاتك واصمتْ وأنتَ تتابع درسى.

ثم تركه، فالتقم الرجلُ لسانَهُ ولم يعد إلى ما كان عليه.

(٥)

مررنا بشخص قعيدَ خلفَ أسوار. توقفنا ونظرنا فإذا به أعمى أبرص، أكل الجذام جسده.

قال لى مُعلمى:

ـ ناده.

فناديته وكررتُ النداء فلم يتحرك ولم يبد عليه أنه سمع.

قلت:

ـ هو أصم يا مُعلم.

وكان معى طعام فقال لى:

- ألق إليه بعضاً مما معكَ.

فقذفتُ إليه عبر السور بثمرةٍ مما أحمل، فإذا به يزحف تجاهها ويلتقطها ويأخذ فى قضمها بشراهة ونهم.

عندئذ نظر إلىَّ مُعلمى لكأنه سألنى: «وعيتَ؟» .

وظللنا فى وقفتنا. أنا ألقى الطعامَ، وهو يزحف بكلِ اتجاه ألقى إليه به، ثم يقبض عليه ويلتهمه، ومُعلمى صامت الصمتَ البليغ.

(٦)

انفض مجلس علم لُعلم لم يكن مُعلمى يوده.

فى الطريق اختلط الخارجون من مجلسه بنا، وسمعنا وقرأنا تأثير الدرس على ملامحهم.

قال أحدهم:

نعم.. كما قال مُعلمُنا.. الجسدُ بيتُ القذر.

وقال ثان:

- الجسدُ كنيفٌ.

ومال ثالثٌ على رابعٍ:

- بالفعل.. مشاق الجسد كثيرة وتكاليفه باهظة.

فرد الرابعُ:

- ما أحقرها أجسادنا هذه.

فنهرهم مُعلمى بأقسى ما سمعته منه حينما يخاطب غرباء، وقال:

- سحقاً لكم ولُعلمكم.. أما علمكم شيئاً عن الصحة والقوة والجمال؟.. أما حدثكم عن هياكلكم ، كيف تنشا، وإلى أية غاية تنمو؟.. ألم يلفتَ انتباه عقولكم البلهاء إلى جسدانية كل ما فى الوجود من أدق جسيم إلى السديم العظيم؟..

ولما كانوا قد ابتلعوا ألسنتهم وصمتوا، فقد هدأت حدة لهجته، وإن استمر، لكنه بدا كما لو كان يحادث كائنات بعيدة تستحق الإجلال والتوقير:

ـ أما علمكم أنَّ مُطلقَ الكون الكلي هو جسمٌ كلي.

لحظتها بانَ الشدَةُ على الجميع وبدوا كما لو أنهم قد أدركوا أنَّ جسماً كبيراً يحتويهم، حتى أنه لَمّا التفتَ إليهم وقال:

ـ وقروا أجسادكم تهنأوا.

كانوا قد بدأوا يشعرون بالهناءة بالفعل.

(٧)

رأيتُ جسدين متجاورين في الطريق، أحدهما مفرط في البدانة حتى فزَّرَ لحمُهُ كسوته وبدا كفيل هندي، والثاني ضامرٌ ونحيلٌ حتى لكأنه إبرة خياط. من فرط المفارقة ضحكتُ حتى كاد جنباى أنْ ينفلقا، فخرج مُعلمي يسأل:

ـ ما هذا الضحك؟

فخجلتُ وقلتُ وأنا أجاهد لكتمان ضحكي دون أن أقدر:

ـ سامحني يا مُعلم...

وعاد زمامي إلى الانفلات، وصرتُ أتلوى أمام مُعلمي وأكتم فمي ولا أستطيع التوقف. كل ما قدرتُ عليه إشارة، مجرد إشارة من ذراع لا تثبت على حال، باتجاههما: فقال:

ـ يا أبله.. ما أخرجني ضحكك الهين، إنما أخرجتني قهقهات صاخبة أردتُ معرفة مصدرها، وهأنذا قد عرفتُ.

من تلقاء نفسها انحشرت الضحكات في حلقي واستقام بدني، واستعدتُ مواقف التوقير والإنصات والتلقي.

قال:

ـ هذان الجسدان يستهزئان بصاحبيهما بقهقهات تهز طرقات الصنوع

ضجيجاً، ويقولان لكل ذي عينين ما أيسر أنْ يتمرد الجسد على القيود، وما أسهل أن يتحرر من كل سيطرة.

(٨)

اكتشفنا أنه يتعين علينا اجتياز صفوف متراصة من المقابر كيما ندخل المدينة التي رام مُعلمي زيارتها لغرض لم يُفصح لي عنه كعادته.

وإذ نجتازها اجتزنا أيضاً سحابات من حدأ وغربان، وخضنا غمامات من ذباب وهوام، ووطأنا أحراشاً توقينا ما يجوس فيها من حيوانات نافشة وأفاع ناهشة، وغزانا غمٌ عظيم لم نقدر على دفعه بعدما اعتصر معدتينا ولواهما لياً مؤلماً وأفرغ كل ما فيهما، فأطراف جثث كثيرة أطلت من التراب سيء الدك، وأشلاء ومعىً قبضتْ عليها أنيابُ الكواسر أو ألقتها بعد أن عافتها. ولولا أننا وصلنا ـ بعد جهد ـ لاختنقنا من روائح الجيف إذ يتعطن وتتحلل.

أسرعنا بتخطي حدود المدينة لنبتعد عن عطانة الرائحة وبؤس المنظر. ربما بسبب من هذه السرعة لم نلحظ ما لاحظناه في القلب منها. ولعلنا انتبهنا لما لاحظناه في ذات الهنيهة، هنيهة جمعنا خلالها دهشٌ هائلٌ. فأدرنا نواظرنا فيما حولنا لنكتشف أنَّ معظم من يحيطون بنا، من الأمام والخلف واليمين والشمال، مقطعو الأيدي أو الأرجل أو مجدوعو الأنوف أو مصلومو الآذان أو مفقوءو العيون.

بهتنا لكثرتهم وقلة مكتملي الأطراف سليمي الأعضاء، ونالنا من رؤيتهم روعٌ عظيم، فلكأننا سقطنا في مجتمع من المشوهين. بعضهم يتكئ على عكازات أو استعاض عن الأطراف المفقودة بأخرى مصنوعة، ومنهم من شغل محجر العين المفقودة بكريات من زجاج أو وضع عليها عصابة من جلد أو معدن. واكتشفنا أيضاً أنَّ كثيرين منهم نائمون أو جالسون أسفل حوائط البيوت يتكففون في طنين كطنين الذباب الذي كاد يهلكنا خارج المدينة،

ومنهم من حاول الاقتراب منا لولا أن الجنود صحيحي الأبدان المنتشرين في كل مكان منعوهم عنا.

من فرط ما روّعنا سألتُ جندياً عما نرى، فأجابَ بنبرةٍ هي الاستعلاء عينه:

ـ القصاص.

فغصَّ حلقي بينما حثَّ مُعلمي الخطو حثاً دفعني إلى الهرولة خلفه بساقين لا تعرفان إلى أين تمضيان، أو إلى أين ينتهي بنا الطريق.

توقفنا أمام رجل يرتدي خرقة تماثل خرقتينا استقبلنا بترحاب وفرح وأدخلنا قاعة بها عدد غير قليل من لابسي الخرق، منهم من نال القصاصُ من أجسادهم، احتفوا بمُعلمي الاحتفاء اللائق، لكن مُعلمي المغتم المُروَّع قابَلَ حفاوتهم بوجه عبوس ونَفَس متقبض، وحينما تكلم لم يكن ذلك الذي خرجَ من فيه كلاماً، وإنما ضربات مُقرِّعة.

قال:

ـ ما هذا الذي يحدث في مدينتكم؟.. وما فائدة وجودكُم بها، جئتكم لنتبادل المعارف والخبرات، فبأي وجه جَهم هذا الذي أستقبلتني به مدينتكم!.. وأي كف غليظة قبضت على عنقي!.. عندما دعاني كبيركم، هذا الذي استقبلني بحفاوة لا أنشدها وترحيب لا أستحقه، صور لي جمال مدينتكم، وحببني في انتظام سبل الحياة فيها، وقال إنني لن أخرج منها إلا بأطيب الذكريات. يا لبؤس كبيركم.. ويا لبؤسي لأنني عشيت اللحظات التي عشتها في هذه المدينة. أسوأ ما يمكن أن تحمله ذاكرة هو ما سأخرج به من مدينتكم.

ثم صمت هنيهة ران فيها الطير على رؤوس جميع الحاضرين بما فيهم كبيرهم، ثم بدَّل من لهجته وإن لم يخفف من حزنه

ـ القصاص يا أهل الخرقة بغاياته. القصاص شرعة حياة. أبداً ما قصد بالقصاص تحويل الناس إلى زمر من المشوهين.

وبتؤدة من يغرس ليزرع وزع عليهم نظراته وقال:

ـ كيف تصبرون على ما يحدث لأجساد إخوانكم؟.. لا تقولوا إنكم معلمون.. يا لهفى على تلاميذكم.. لو كنتم معلمين حقا، فكيف أتحتم لهم فرص التمحك بالشرائع وتسويغ أفكارهم عن التخويف والردع؟.. كيف تركتموهم يقطعون أجسادكم ويدفنون جثثكم؟.. ما رامت الشرائع ـ كل الشرائع ـ سوى الرحمة، وفى أيدى الرحماء ما كانت إلا بلسماً وشفاءً. ولو نظرتم لتبينتم أن التخويف ما ردع، وما أدى إلا إلى استفحال العطن، ولم ينتفع به غير الجند الموزعين على أرجاء المدينة.

وكان أن هدأ وقر، فألان من صوته، وربت على ظهر كبيرهم، وخاطب الصامتين إقراراً منهم واعترافاً بصدق ما قرع به مسامعهم فقال:

ـ سامحونى، ودلونى ورفيقى على مخرج من هذه المدينة غير الذى دخلنا منه.

(٩)

فشل مجلسا الصناع والتجار فى كسر شكائم ممثلى من يستخدمونهم، ولم ينجحوا فى دفعهم إلى إقرار قيم التعويضات التى سمحوا بدفعها مضطرين لأسر من يفقدون حيواتهم أو لمن يخسرون بعضاً من أطرافهم أو أعضائهم أو تصيب أجسادهم أسقام الصناعة والتجارة. قال الصناع والتجار إن ما سمحوا به هو العدل وكفاية، وقال ممثلو المستخدمين هو الظلم ولا ظلم بعده.

إزاء هذا الفشل طلب أعضاء المجلسين دعم موقفهم بكسب تأييد معلمى فدعوه إلى اجتماع اقتصر عليهم دون ممثلى المستخدمين، فلبى الطلب واصطحبنى معه.

كان منظرنا بخرقتينا غريباً على الحضور، وهذا ما اعتدنا قراءته في ملامح وعيون من نلتقي بهم من غير أبناء الطريقة، ما لم نعتد عليه هو منظرهم هم، فجميعهم على كثرتهم واحتشادهم متأنق، متعطر، منتفخ، ومرتخ، وعلى كثرة وتباين الأماكن التي ارتدناها صَدَمَنا المكان الذي حللنا فيه، وما كان لنا إلا أنْ نُصدَم لأنه ما أعِدَّ إلا لِمَن هُم على شاكلة مَن دعوْنا، هؤلاء الذين امتزج في عيونهم وانطبع على ملامحهم خليط من علامات الترفع والسخرية والزُلفى والتوَدُد المبنيين على الغرض. وفوق صدمة المكان ومَن يشغلونه، صدمتنا المقترحات التي سردها كبارهم على مسمعي مُعلمي ومسمعيَّ، لمَا تضمنته من ظلم بيِّن للغائبين عن الاجتماع، فما كان من مُعلمي، إزاء هذه الصدمات المتتالية، إلا أنْ نحَّى مُكبِّرَ الصوتِ ونهضَ وخطبَ فقال:

- لهفي على الإنسان وما يفعله بالإنسان. لو أنَّ وحشاً دنيئاً في فلاة انعدمتْ فيها الفرائس، ما فعل ما تفعلونه، ببني جنسه..

قاطعه كثيرون، وهَمَّ غير واحد بالنهوض إليه والاحتجاج عليه، إلا أنه بحركة واحدة وهتفة واحدة أسكتهم، وبحزمه الذي لا رادّ له أمرهم:

- اجلسوا.

فجلسوا.

صحيحٌ أنَّ شفاه أكثر من كبير ممن يحيطون به تحركتْ، لكن أحداً منهم لم يُخرِّج صوتاً أو ينطق قولاً.

قالَ مُعلمي وقد بان لي أنه سيسهبُ في القول على غير عادته:

- .. أنتم فعلتم ما هو أشدُّ وأنكى. قتلتم الإنسان بفصلكم بين جسده وروحه، وبقولكم - يا مَن تسمون أنفسكم صنَّاعاً - الجسد آلة أو ترس، والروح وقود أو طاقة، وكما يُحرِّك الوقودُ الآلة تحرِّك الروحُ الجسد. وأنتم يا مَن تمتهنون التجارة امتهنتم عمالكم وزبائنكم سواء بسواء، ووجهتم ترسانة

مغرياتكم إلى الروح، وأجبرتموها على شراء كل ما تبيعونه، احتاجه الجسد أم لم تكن له به حاجة.. ويا لهف نفسي على ضحاياكم، فما بعتم لهم سوى الأكفان وما وفرتم لهم غير التوابيت..

عادوا فزاموا وتململوا في جلساتهم فأسكتهم وسمرهم بثقيل قوله:

- .. أنتم يا مَن تسمون أنفسكم صنُّاعاً لستم بصنُّاع، إنما الصنُّاع هم قتلاكم ومن أكلتم أطرافهم ومضغتم أحشاءهم وتلهيتم بالعيون التي كانت تزين وجوههم. وأنتم يا من عُرِفتم بوصفكم تجاراً لستم بتجار، إنما أنتم نهَّاشو لحم ومقاقو عظم، وشاربو دماء.. فأي سِربال عدل هذا الذي تتباهون به يا مَن تجلسون أمامي، وما تباهيكم بمكتمل، لأنكم لا تصدقون أنَّ ما تتسربلون به قد أخفى بشاعة الظلم الذي ما وجد له أجساداً تمثله تفضل أجسادكم..

وإزاء الارتخاء الذي بَدَوْا عليه، والذهول الذي تملكهم، شَدَّ مُعلمي من خِرقتِه وأرعدَ كيما يوقظهم:

- .. أفيقوا أيها القساة وأنصتوا.. لا عدل ولا حياة لِمن تستخدمونهم، ولكم، إلا بتحررهم منكم. وتحررهم لا يكون بغير امتلاكهم للأدوات التي نغزتم بها أجسادهم وقصفتم بها أعمارهم. معهم ستتحول هذه الأدوات مِن مناخس إلى محاريث ، وسترون كيف تزهر الحياة بأيديهم وتينع. الكد هو نفس الكد، لكن الحصاد مختلف. وإنْ تطلب الأمر تعويضاً لجسدٍ فُقِدَ كله أو بعضُه فليس أفضل من المفجوعِ مَن يحدد التعويض العادل..

ثم قلب شفتيه ناثراً عليهم احتقاره:

- .. لكن ما فائدة الحديث معكم وقد صُمَّتْ آذانكم وتحجرتْ قلوبكم ؟.. ما الجدوى مِن الحديثِ مع عقول تكلست وضمائر ماتت؟.. إني مفارقكم ومِن فوري متجه إلى ضحاياكم، وسواء استعددتم لهم أم لم تستعدوا، فهم واثبون عليكم واثبون..

ثم تركناهم حيث هم مُسَمَّرين فى أماكنهم وانطلقنا إلى حيث تظاهر ضحايا المهيمنين على الصناعة والتجارة.

(١٠)

أبداً ما رأيتُ فى حياتى جسداً لإنسان نُكِّلَ به مثلما رأيتُ ذلك المتأرجح فوق الجسر الواصل بين ضفتى النهر.

مشجوج الرأس، متورم العينين، ومشقق الأذنين كان.

أنفه منتفخ، وشفتاه مشرومتان، ومن أسنانه ما انكسر أو سقط من أصله. وفتوق اللحم تبظ من خروق ما يلبس، وقد تيبستْ فوقها الدماء المخلوطة بالتراب.

بالصدفة كنا نجتاز الجسرَ، وبالصدفة رأيناه. بالكاد تغلب على وهنه واضطراب أعضائه، وصعد السياج صعوداً هو الترنح والارتجاج، فجمدنا فى مكانينا، وما كان لنا إلا أنْ نجْمُد. لولا ما عليه من بقايا لباس لظنناه بهيمة فرَّتْ من مَسلَخ. ساقاه المخلخلتان اهتزتا، وقوامه المقصوم تأرجح، ورأسه المثخن انحنى مستقبلاً صفحة النهر، فسخنتْ دماؤنا وتحررنا من بعض جمودنا فصرخنا، وما كان لنا إلا أن نصرخ. صرخنا فى صوتٍ واحد، صوت جزع هلوع:

- عندكَ يا فتى..

ولم نَزِدْ لئلا يقع ما لا تحمد عقباه.

استدارتْ كتلة اللحم المُشوه باتجاهنا فازداد تأرجحها تأرجحاً، والذراعان المهشمتان تطوحتا. فأغمضتُ عينيَّ كيما لا تريان السقطة الاكيدة. ولمَّا لم أسمع صوت السقوط فتحتهما، فإذا بمُعلمى قد اقتربَ منه ومَدَّ ذراعيه صوبه، وإذا بالجسدِ المُنَكَّل به يواجهنا بملامح أكثر وضوحاً.

حاذيتُ مُعلمى فتبينتُ الدم المتخثر فوق الرأس المحروق شعرها، وتعرجات انبعاجات الجبين، وشقوق الحاجبين ونشوزهما. ورأيتُ جفنى عين

وقد التحما مِن فرط تورمهما، ومِن الانفراجة التى تفصل جفنىَ العين الأخرى رأيتُ جزءاً مِن البؤبؤ كُرَيَّة سوداء غاطسة فى بحيرة مِن دم. أما الأنف فمفدوغ وبه انتفاخ، وامتدت إليه الشفتان المشرومتان وحولهما دكنة هى خليط مِن الأزرق والأحمر والبنى والأسود؛ وثمة ساعدٌ مكسور ورسغٌ مطوى وأصابع متقيحة وزندٌ برز منه العظمُ وتدلى العضل.

تقدم مُعلمى خطوة وتبعته، فإذا بالشفتين المشروختين تنفرجان، وإذا بصوتٍ يُخرج كلاماً من بين فراغات الأسنان المهشمة:

ـ لا.. لا توقفنى يا مُعلم.. لا تمنعنى يا مُعلم فما عدتُ أحتمل العيش بهذا الجسد الأشوه..

ربما هى البهجة التى غمرتنى ومُعلمى إذ ذاك، فعلى ضعف صوته وخفوته، ومع شيوع اللثغات التى سببها ثرمه، فإنَّ المخارج كانت واضحة، والمعانى مفهومة. لم يتكلم مُعلمى، ولم أتكلم، هو الذى استمر فى الكلام. قال:

ـ كهربوا أذنىَّ وأصابع قدمىَّ وحلمتى ثديىّ. بتروا عضوى، خوزقونى، فشخونى، فتتوا عظمى، وفسَّخوا أطرافى. مكنُّوا كلباً مِن فتحة إستى، وأعملوا فى إليتىَّ المقارض. تسلوا بخلع أظافرى، وحَرْق أطرافى بالحِمض. أرقدونى فوق المسامير والزجاج المكسور، ودفعونى للخوض فى القطران المذاب، وفى أوقات لهوهم أغطسونى فى البول وأجبرونى على مضغ خِرانى..

وانهمرتْ الدموع مِن بين الجفنين المنفرجين وسال المخاط مِن الأنف المنتفخة وتقطعتْ نياطنا.

قال:

ـ أرادوا أن أقول ما لا أعلم، وأن أعترف بما لم أفعل..

وقال:

ـ هربتُ منهم لأعيش.. إلا أن مرآة النـهر أرتنى هول ما أنا فيه من بؤس وهوان..

وقال:

ـ فعلوا هذا وأنتَ فيهم يا مُعلم.

وقال:

ـ كيف أعيش بجسد مستذل، ونفس مهانة؟..

وقال:

ـ كيف يضمنى وهؤلاء الوحوش عالم واحد؟

ثم استدار بخفة لم أظنه قادراً عليها، وقفز إلى النهر، وما هى إلا ومضة وإذا بمُعلمى فوق سياج الجسر قافزاً خلفه. وإذ يهويان فى الفراغ العميق ويتجهان صوب الماء، رأيتُ لمُعلمى جناحى باشق مفرودين على مداهما، ورأيته ينقض على الجسد المعذب ويقبض عليه ثم يحلق به صاعداً، وبعد نصف دورة سريعة حطا وسط الجسر. ولمَّا اطمأنَّ إلى نجاته، قال له مُعلمى:

ـ جسدكَ قوِىَ بما نال، ونفسكَ عَزَّتْ بما شاهدت.. وإننى لجامع مُعلمى المدينة للنظر فى أمر معذبيكَ للتو واللحظة.

(١١)

فى بيت المتعة الذى لا يخطو عتبته إلا مَن سَدَّد كُلْفة الدخول تخففنا، مثلنا مثل الآخرين والأخريات، من خرقتينا: وحَسونا حسْوات من الحوض المملوء حتى الفيض لبناً وعسلاً؛ ثم اتجهنا إلى الحديقة حيث لا حوائل سوى الأيْك والآجام وخمائل الزهور المنسقة تنسيقاً يعجز الوصف عنه. اضطجعنا فى فىء أجمةٍ واتكأنا على النمارق المصفوفة بانتظام بديع.

حفتْ بنا غيدٌ كواعب، خصورُهن مستدقة، وأوراكهن مدملجة، وشعورهن مُسدلة حتى أردافهن، يمشين بتؤدة، ويعرضن أنفسهن بخفر. وفيما طاف بنا غلمان مُردٌ وغير مُردٍ يحملون طاسات وأباريق، أخذنا نرنو إلى المستحمين والمستحميات في البحيرة الرائقة الممتدة أمام نواظرنا، وبهرنا تلألؤ ما طفا مِن أجسادهم وأجسادهن تحت لطيف ضوءٍ منسكب مِن حيث لا نعلم، ومرآنا لما غطس منها دامَ واضحاً جلياً فلا شائبة في الماء ولا عكارة، ولا كسرة لضوء ولا دكنة لظل.

أوقفَ مُعلمي غلاماً والتقط طاسين ناولني إحداهما فصَبَّ الغلامُ فيهما ما صَبَّ مِن إبريقه، فشربنا فإذا بما شربناه صهباء ما ذقتُ مِن مثل حلاوتها حلاوة، غمرتني نشوة فهمْتُ مِن عيني مُعلمي أنه مغمور بنشوة مثلها: ومعاً استوقفنا غادتين فإذا بهما طوع بناننا فضاجعناهما، وما امتنعتا وما أظهرتا ترخصاً أو ابتذالاً.

بعد أنْ انصرفتا قرَصْتُ جلدي لأتحقق من أنني ما زلتُ موجوداً فعلاً، والتقطتُ من الدقائق ما صغر، وطوقتُ مِن جذوع الشجر ما غلظ، واحتضنتُ مِن النمارق بعضَها، وأدنيتُ أنفي من الزنابق والأقاحي والورود أشم ما يفوح منها مِن أريج وشذى، ثم قلتُ لمُعلمي وأغاريد طيور خفية تتداخل مع صوتي:

- يا مُعلم.. جسدانا مازالا هما جسدانا، ومع هذا نعيش عيشة لا يألفها كل ذي جسد، فماذا فعلنا يا مُعلم لننعم بما نحن فيه؟

بأوجز عبارة أجاب:

- لأننا آلفنا بين الخصمين.

فهمتُ أنه إنما يقصد الروح والجسد: وإذ يمر علينا مَن يحملون مِن الفواكه ما نعرف وما لا نعرف، تمنيتُ ألا أخرج من هذا البيت أبداً.

أوقات للجلوة أوقات للاضطراب

(١)

سألتُ مُعلمى:

ـ مَن أنتَ؟

أجاب:

ـ أنا حصيلة ُاضطراب هذا الكون.

وأشارَ إلى السماءِ والأرض . وأظنه أشارَ أيضاً إلى ما خفى وراءهما .

(٢)

دهمنا فرحُ عظيم لمَّا رأينا رجلاً يمشى فى خِرقةٍ تماثلُ خِرقتينا فوق الطوار القريب .

بدا لنا أنه يتعجل أمراً.

ناداه مُعلمى:

ـ يا أخا الخِرقة.

إلا أنه لم يلتفت إلينا ، فحثثنا باتجاهِ الخطوَ، لتغطش فرحتنا كَدْرَةٌ ، مَنَّيْتُ نفسى بزوالها إن غمرناه بماء بئر عرفناه، أو سكبنا عليه بعضَ ماءٍ منه أو مِن أى صنبور نلقاه، وما كان الماءُ ليراود فكرى لولا وسخه الذى كدرنا.

كان الوسخ يكسو الجلدَ والخِرقة.

كرر معلمى نداءه، لكن حانوتاً كان قد ابتلعه ليخرج منه مرتدياً الخَزَّ والوَشْىَ ومنتعلاً خفين من جلد الثعبان صُنعا.

ما ارتداه كان قشيباً نظيفاً ولامعاً، إلا أن وجهَه وما يبين مِن جِلدِهِ بقى على وسخِهِ.

تبعناه ، فإذا به أمام قصر الحاكم . أبرزَ أوراقاً فاجتازَ بوابةَ حديقة القصر، والممرَ المؤدى إلى القصر، ومن بين صفوف الحرس رأيناه يختفى فى مدخلهِ؛ ولأنه ليست معنا أية أوراق فقد مُنِعْنَا حتى من مَسٍّ سور الحديقة، فوقفنا فى البعيدِ وانتظرناه.

وإذ يخرجُ، رأيناه يركبُ عربةً مكشوفة مثقلاً بالأوسمة والنياشين، ومتبوعاً بموكب من العربات المُحَمَّلَة بالملفوفِ والمُربَّع والمُستطيل والمُستدير من الأشياء، وتحف به وبالموكبِ دَرَّاجات بخارية مُصَفَّرَةٌ، فوقها حراسُ مواكبِ الحاكمِ ذاتِه فى أبهى حُلل التشريف.

عندئذٍ رأيتُ من مُعلِّمى ما لمْ أره منه طوال اتباعى لَه، وما لمْ أكنْ أتوقعُ رؤيتَه منه ، فقد اضطربَ وثارَ وغَضبَ ، وهاجَ وماجَ، وأرغىَ وأزبدَ ، وأجهشَ وبكىَ، وصاحَ وجأرَ، وأطاحَ بأشياءٍ تَصادَفَ أنْ كانت بين قدميهِ أو قبالة قبضتيهِ، ثم انتابته رعدةُ صَمْتَ فى إثرها وضمَّ كفيه إلى صدرهِ وجَثا مُنكساً رأسَه تجاه الأرض.

كنتُ متيقناً من أنَّ خالعَ الخرقة ، وأعطيات الحاكمِ له، على وسخه، سببُ كل ما اعتراه، وبَدَا لى فى صمته أنه إنما يُراجعُ نفسَه ، فقد مكثَ على وضعهِ دهراً، ثم رفعَ رأسَه وسَهَمَ سُهُوماً ما ظننتُ له انتهاءً، وتعلقتْ عيناه بمدى لا أراه ، فيما أخذتْ الدموعُ تسحُّ من عينيه سَحَّاً.

بعدها فاجأنى بنهوضه وكفكفته لدموعهِ، أكثر من هذا شدَّ من خرقتهِ ، وسوَّى خرقتى، ومُتصالباً قال:

ـ لا تبال.

ثم مضى بى باتجاهِ النهر.

(٣)

لَمَّا تيقظتُ تفقدتُ مُعلِّمى فلم أجده. لم تكن ثمة ريح، ولم أتسمع صوتاً، وفى السماء كان القمر بدراً، وكانت النجوم دراً.

ارتقيتُ الكثيبَ الذى آوانا سفحُه، فإذا بمُعلمى فى فساحةٍ من الأرض، والبدر فوق رأسه يسكب ضوءه عليه وعلى ما حوله، والنجوم نثارٌ من بهاء، والأفق دائرة مكتملة لا تعرُّج فيها لا من جبال ولا من تلال.

هجستْ نفسى، فلربما دخل مُعلِّمى الحال .

محاذراً اقتربتْ منه ، ومتوقياً أن تبدر منى نأمة فتضطرب حاله توقفتُ منه على مسافةٍ، وكان قد أخذ وضع المتبتل، فسمعته يهمس همس المتضرع:

ـ أيتها الطبيعة ، ما أنا سوى جزىء من جزىء فى جزىء، من جزىء فى جزىء، من جزىء فى جزىء، من جزىء فى جزىء، من جزءٍ فى ذرةٍ تافهةٍ من ذراتك الذائبة فى قطرةٍ من بحر من بحارك.

ثم جـأرَ وصـاحَ فـجـفلتُ واهتز البدرُ وارتجت النجومُ وترجرجت دائرة الأفق وثارت الرمالُ حتى أعمتنى فيما ردَّدَ الأفقُ صياحَه:

ـ أيتها الطبيعة احذرينى فأنا أمردُ ماردٍ فوق هذا الأديم.

عندئذ انبثقت من الضوء بعوضة راحت تطن حول رأسه فأصابه الاضطراب ورآنى ، فاضطربتُ بدورى، واضطرب كلُّ شىء من حولنا.

(٤)

فوق تلة من صخر أبصرتُ مُعلمى فى حالة من الهياج الشديد. كان هو على القمة وكنتُ بين السفح ومنتصف التلة أرنو إليه وهو يجأر بأجهر صوت ويقبض ويقذف بقبضتيه العصبيتين الحصى والحجارة. كأنه يريد إيقاظ وإسماع كل ما فى البرية من بشر وكائنات. بالتأكيد كانت هناك كائنات، أما البشر فلم أبصر سواى. بيسر وقر سمعى زئيره:

ـ شقوا جسدى..

ـ .. أخرجوا ما بجوفى..

ـ .. افتحوا قلبى..

ـ .. اطلعوا على ما يحتويه..

ـ .. اطلعوا.. فلعلكم تقفون على سر اضطرابى.

ثم جثا على ركبتيه فبدأت أصعد إليه بقلب واجف وجسد مرتعد.

(٥)

عند الباب سمعتُ صوتَ مُعلِّمى مقروناً بلهاث أنكرته. تنصت فتيقنتُ من أن الصوت صوته. تبينته يقول:

– عريكِ يفتننى. يأسرنى. وددتُ لو غصتُ فيه. امتزجتُ به. أعطيته نوب نفسى. دفق حياتى. كل حياتى. دعينى أقترب منكِ. أتشممكِ. أتحسسكِ. أطوفُ بأعطافكِ. خذينى منى. ضمى حناياكِ علىَّ. احتوينى. استقطرينى.

قلتُ هى جَلوة بانت لمُعلمى فلأتركه وما هو فيه فلعله يتناجى ومجرداته، غير أن تتابع لهاثه وتداخله وما ظننته شخيراً دفعنى إلى فتح الباب ممنياً نفسى بالحصول من مراقبته فى جلوته هذه على معارف جديدة، غير أننى توقفتُ فى مكانى من الفرجة التى ضيقتها بسحب الضلفة بتأثير مما أبصرته، فقد كان مُعلِّمى عارياً تماماً ومرتمياً بين شعاب فاتنة عريها يحاكى المرمر فى نعومته ولونه، وكلاهما ملتصق بالآخر التصاقاً لا انفصام له.

(٦)

من شقوق ذات الباب سمعت مُعلِّمى ينهنه، ثم ما لبثت النهنهة أن أضحت بكاءً ونحيباً. محاذراً دفعتُ ضلفة الباب فرأيته مبسوط الكفين، مهتز البدن، فى وضع التضرع، ومحاطاً بالدنان والقوارير ومنها ما تسيل ثمالته فوق الحصير، وسمعته يقول بأخفت صوت:

ـ أنا لا شىء.. أنا فقاعة بين زبد.. فقاعة دفعها البحر إلى الشاطئ لتلقى حتفها بين أوساخه.. أنا حشرة حبستْ فى حُقة فإن انفتح غطاؤها ما عادت

تقدر على قفز أو سير أو طيران.. أنا جاهل.. سيىء العهد.. عديم المروءة والأدب والوفاء.

هالنى ما هو عليه فغافلتُ حذرى وهجمتُ عليه أرجه وأحتضنه وأربت على ظهره عله يفيق. طسستُ وجهه بالماء وصببته فى فيه ولم أكف حتى قاء. عندها نتر رأسه من بين كفىَ وصرخ فىَ:

ـ اخرج.

فخرجت، لكننى تركتُ الباب مفتوحاً.

(٧)

كان ليلٌ بهيمٌ، وكان رعدٌ وبرقٌ ومطرٌ غزيرٌ، وكنا نقف فى العراء، ولا يرى بعضُنا بعضاً إلا فى وميض البرق، ومع هذا أبقانا مُعلمنا، وهو معنا، خارج حجرة الدرس حتى كادت خرقنا تذوب من فرط البلل، وخشينا أن تصعقنا الصواعق. لمَّا نضبت المُزنُ، وكفَّ مطرُها، وانطفأت البروق، وخفتت الرعود، كان الفجرُ قد انبلج فتحركَ مُعلمنا وتفرسنا وسأل:

ـ ما قولكم فيما شقيتم به؟

قلنا:

ـ تُعاقبنا لذنوبٍ اقترفناها.

ردَّ:

ـ إنما أعْلِمُكم أنه مثلما لمُعلمكم أحوال فللطبيعة أحوال، فأحوالى من أحوالها، وأحوالنا لا راد لها ولا قامع.

(٨)

اختفى مُعلمى فترةً فسيطرَ علىَّ وعلى تلاميذه الاضطراب ، وطفقنا نبحث عنه فى كل مكان.

رآه تلميذ فى حان فهرولنا إليه فقال المخمورون:

- خرج.

ورآه آخر فى خان فدخلناه فقال المنهومون:

- خرج.

ورآه ثالث فى بيتِ فسق وفجور فاقتحمناه فقال الداعرون:

- خرج.

طفنا بالميادين والشوارع والأسواق والبيمارستانات والحدائق والمروج ومجارى النهر دون أن نعثر له على أثر.

وإذ نمرُّ ببوابة السجن رأيناه يناشدُ الحراسَ:

- افتحوا البابَ .. أدخلونى لأتخلص مِن اضطرابى وأنعم بحريتى.

مع الوحش وأمامه وفوقه

(١)

عند حافة الغابة بزغ طاووسٌ بهيُ الريش بديع المنظر فجريتُ وراءه مبتغياً قنصه ، إلا أنَّ مُعلمي استوقفني آمراً:

ـ يا زائغ البصر ارجع.

مكموداً رجعتُ.

قلتُ:

ـ قد نجدُ فيه يا مُعلِّم عن الغزالةِ عِوضا.

قال :

ـ إنما غرَّكَ منه العُجْبُ والكبرياء.

وسكتَ هنيهة ثم قال:

ـ أبداً ما كانت الطواويس مثل الغزلان.

فتذكرتُ الغزالة واستوحشتها، ومع أنني لمتُ نفسي لنسيان أمرها، فقد خشيتُ أن أسأل مُعلمي عنها لئلا أوجده، أو ينالني منه تقريعٌ وتوبيخ.

(٢)

في الغابة، فوجئنا بحيَّةٍ ضخمة تتدلى مِن غصن الشجرة التي تعترضنا وتقدمتْ نحونا. دبَّ الذعر في قلبي بينما ظلَّ مُعلمي رابط الجأش، جذبته إلى الوراء إلا أنني رأيتُ ما لم أره مِن حيَّة في حياتي. بعد أنْ لمسَتْ رقبتُها الأرضَ أسرعتْ إلى قدمي مُعلمي وأخذت تمسح رأسَها فيهما، ولم تنصرف حتى انحنى ومسح على رأسِها وربَّت؛ فتعجبتُ لذلك فقال :

ـ أقبلتْ هذه الحيَّة لتحيتي، فهل ترغب أنْ يكون لكَ مثل هذا؟

غالبتُ خوفي وقلتُ:

ـ نعم.

فقال لي:

ـ ربما كان لكَ ما دمتَ تريد، فحاول.

لكنني أسررتها في نفسي ألا أقرب حيَّة في حياتي.

(٣)

بعد أن انطفأت النار التي أعانتنا على برد ليل الغابة، أطال مُعلمي النظرَ إلى الرماد البارد وقطرات الندى العالقة بالهشيم المحيط. بعدها رفع رأسه باتجاهي، وخاطبني كما لو كان يخاطب نفسه:

ـ هل رأيتَ فراشة تحترق؟

هل رأيتَ انزواء ألوانها؟

هل سمعتَ أناتَها من قسوة اللهيب المعشوق؟

هل رأيتَها إذ تسقط فوق قطرة الماءِ لتنقذ ما يمكنها إنقاذه من ألوانها؟

وهل رأيتَ العصفور إذ ينقض فيلتقطها ويطير؟

ولمَّا لم أكن قد رأيتُ شيئاً من هذا فقد نظرتُ إليه بعينين فاترتين، لكنهما ما لبثتا أن جحظتا لمَّا رأتا عصفوراً محصوراً بين كفيه وفي منقاره بقايا فراشة.

(٤)

انقض صقر فوق أرنب وحمله بين براثنه وطار. حدقنا في الطائر وضحيته وهما يعلوان فوق هامات الأشجار فجاءتنا أصوات هي مزيج من خوار وزومات ظفر .

هبطنا بأعيننا إلى مصدرها، فإذا بخرتيت يترنح تحت وثبات جمع من الثعالب، منها ما تشبث بظهره، ومنها ما عضَّ على أذنيه، وما تعلق برقبته،

أو عمل على سحبه مِن قوائمه ومن ذيله القصير، وما زالت به حتى أسقطته وأعملت فيه الخدش والنهش.

ما نطق مُعلمي وما انفعل.

منزعجاً استسلمتُ ليده وهي تسحبني وتجاوز بي أشجاراً ملتفة الأغصان، فإذا بزرافةٍ عملاقة تدهس بقائميها الأماميين ذئباً يتلوى ويعوى.

أصابني دهش عظيم، وظل مُعلمي على هدونه.

قلتُ له ، وأنا أحملق في قردٍ يتدلى من غصن يواجهنا في دغل دخلناه:

ـ قل لي فيما نراه قولاً آخذه عنك.

قال:

ـ الطبيعة حمراء بين الناب والمخلب.

عندئذٍ صاح القرد ثم لوى فمه ، فخامرني إحساس أنه إنما يسخر مِن جهلي.

(٥)

بين دغلين صَدَمَنا صبيٌ وصبية أعماهما الفزع وألهثهما الجرى والاضطراب. شعيرات خضراء أطلتْ بالكاد مِن فوق شفتي الصبي، ونهدان نبتا لتوهما فوق صدر الصبية. استوقفناهما وسألناهما عما يُفزعهما، فقالا بالتتابع وبالتقاطع وهما يشيران باتجاه المكان الذى أتيا منه:

ـ ذئبٌ قطع علينا الطريق.

ـ قطع علينا الطريق ذئبٌ.

نظرنا إلى حيث أشارا، فلاحت لنا هيئة الذئب.

ـ أفرِخْ مِن روَعهما.

قالها مُعلمي وانصرف إلى حيث يلوح شبحُ الذئب.

ما كدتُ أعرف منهما أنّ الفضول هو دافعهما إلى ارتياد الغابة. حتى كان مُعلمي قد عاد ساحباً الذئب مِن إحدى أذنيه. وعلى الرغم مِن

بروز أنيــابه، فقد هطع واستسلم هطوع واستـسلام الطفـل المذنب بين يدى أبيه.

وفيما يشير إلى الصبيين أنْ اخرجا من حيث أتيتمـا، مَسَّنى ذَنَبُ الذئب فـجفلتُ، فطمـأننى بابتسـامـة، واتجـه بالذئب إلى حـرش قريب وأطلقه فـمـا انطلقَ، ومـا هـاجَ، وإنما أتـى بما لا تأتيـه الذئاب.. أقـعى على العـشب وظلَّ ينظر إلى مُعلمى فى مذلةٍ واستكانة حتى تركنا المكان وانصرفنا.

(٦)

انهارت بنا الأرض المغطاة بالأغصان وأوراق الشـجر فإذا بنا فى قعر فخ نصبه الصيادون وفى مواجهتنا نمرٌ جريح.

زمجر النمرُ فأسقط في يدى وأيقنت من الهلاك، بينما لم تبدِ من مُعلمى أية علامة تدل على الانزعاج.

مَدَّ النمرُ أحدَ قائميه الأماميين باتجاهى فعثرتُ بالهشيم الذى سقط بنا وزحفتُ بظهرى باتجاه مُعلمى فهتف بى :

ـ انهض.

فنهضتُ ليلتقط بعضاً من الأغصان التى سقطت معنا ويثبتها فى قاع الفخ ويسند أطرافها إلى جداره الرملى.

أمرنى:

ـ اصعد.

قلتُ:

ـ ليس قبلك يا مُعلم.

كرر:

ـ اصعد.

فصعدتُ وصعد ورائى.

مع مُعلمي النجاة مُمكنةُ، لكنني لم أصدق أن تأتي بهذه السرعة، ولم أصدق التفاته إلى ألياف الشجر وجمعه إياها وفتله لِمَا جمع. إزاء نظرة الاندهاش التي غمرته بها قال:

ـ ساعدني.

ففعلت.

لما أصبح لدينا حبل طويل أخذ يمسده ثم عقد مِن أحد طرفيه أنشوطة، دلاَّها إلى الفخ، وما زال يحركها حتى أدخل رقبة النمر فيها. بعد اطمئنانه إلى سلامة وضعها وعدم خطورتها عليه أشار إليَّ فشاركته شد الحبل ورحنا نقلقل النمر حتى أوصلناه إلى الأغصان المائلة مما يسر علينا جذبه وإخراجه.

مِن فرط التعب انطرحنا ثلاثتنا متجاورين فوق الهشيم، نهض مُعلمي وفك الأنشوطة، فاستقمتُ قاعداً ونظرتُ إليه وهو يتفحص جروح النمر. لمَّا اطمأن لسطحيتها حاول إنهاضه فلم يساعده النمر. رأيته يتحرك إلى قائميه الخلفيين ويتفحصهما، ثم التقط حطبتين وشذبهما وربطهما بالليف إلى رجْل تيقنتُ أنها مكسورة، وفوجئتُ به يناديني:

ـ لم قعودك؟.. انهض وساعدني.

نهضتُ إليه وقد خامرني بعضٌ مِن اطمئنان. أشار إليَّ أن أساعده في إنهاض النمر ففعلتُ والقلب مني يرتجف. ما إن نهض حتى توقعت أن يهجم على أينا، لكنه التفت إلينا وهز ذيله ومضى يظلع أمامنا حتى أخفته.

بعد تمام اختفائه عن أعيننا التفتَ إليَّ مُعلمي وقال:

ـ إنْ لاقاكَ بعد معافاته لا تنتظر منه رداً للجميل.

(٧)

بقدرٍ هائل مِن الحرص أوقفني مُعلمي وسط منطقة متكاثفة الأشجار

ملتفة الأغصان لئلا أدوس على هيش من الهشيم ومساحة من التربة السوداء بدتْ لي على قدر من الهشاشة معهود.

من الحَزم الذى أبداه مُعلمي توقعتُ أنْ ينطوى الأمر على خطر وتهديد عظيمين، كأن يخفى هذا الجفاف طيناً لازباً أو بركة غائرة أو فخاً لصياد، أو يكون إبصار مُعلمى قد كشف له وكراً لأفاعٍ يغطيه الهشيم. لكننى لم أر غير جماعات من ديدان الأرض.. ديدان صغيرة وكبيرة.. صغيرها لا يكاد يبين، وكبيرها فى حجم الإصبع.. فأفرخ روعى وهممتُ بمواصلة المسير، فما أيسر دهس هذه الديدان المثيرة للتقزز والاحتقار، لكن جذبة من مُعلمى سَمَّرَتنى فى مكانى.

قلتُ:

ـ هى مجرد ديدان يا مُعلم.

فنهرنى وقال بإجلالٍ لم أدر له مبرراً:

ـ لهذه الديدان أدينُ بوجودي وتدين بوجودكَ.

مستغرباً تطلعتُ إليها وإلى حلقاتها المتماوجة وتأملتُ الشعيرات الدقيقة التى تغطيها ومقدماتها المخروطية ومؤخراتها المستعرضة المفلطحة. كان المخاط اللزج يحيط بالكثير منها، فنظرتُ إلى مُعلمى مدارياً قرفى ومستفهماً، لكنه أشارَ إلى جماعة منها فنظرتُ فإذا بها تحفر جحوراً. دققتُ النظر أكثر فإذا بها تجرف التربة بشعيراتها وتنزلق بمخاطها، وما تلبث بتموجها أنْ تندس فيما تحفره رويداً رويداً ويأخذ الجزء الظاهر من حلقاتها فى التقلص إلى أنْ يختفى تماماً؛ وفى نفس الوقت تنبثق ديدان أخرى تتحرك ذات اليمين وذات الشمال. وفي ديمومةٍ لا تهدأ رأيتها تنهش الأوراق والتراب وتبتلع ما تطوله ثم تفرزه كتلاً من التراب المطحون. وحدث أنْ هبَّتْ بعضُ ريح فاهتزتْ الأغصان.وسقط الضوء لاكتشف أنَّ كل ما هو تراب

هش أمام أعيننا إنما هو آكوام من تلك الإفرازات. وكأنما قرأ مُعلمى ما يدور فى ذهنى، فقد وضع يده على كتفى وقال:

- ما أجدر هذه الديدان بالاحترام، وما أحقها بالتجلة.. فلولاها ما كانت خصوبة، وما كانت حياة.

(٨)

دخلنا منطقة انقبضت لها أنفاسى.

هواؤها شديد الثقل.. عطن.

أول ما لفتَ انتباهى، وانتباه مُعلمى فيها، حشدُ النسور والضباع المتصارعة حول جثة ثور لم يعد فيها كاملاً سوى الرأس، فجلده قائم وأذناه وقرناه، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما، وما عدا الرأس مجرد هيكل عظمى مغطى بنتف سوَّدها العفن.

من النسور ما انشغل بدفن منقاره تحت جلد الرأس أو التغلغل به فى الأذنين المشرعتين، أو اعتلى قرنيه كثيرى الفروع وعمل بمخالبه على ضبط توازنه فوقهما؛ ومنها ما انشغل بنقر رؤوس وأجسام الضباع أو ضربها بجناحيه، ومع هذا تناوبت الضباع واحداً إثر الآخر الهجوم على ما تبقى من جثة الثور ونتش ما تستطيعه منها. وفى حركات الكر والفر تطير الزرازير التى حطت تلتقط من الديدان التى تكومت تحت مخالب النسور، وتتناثر سحابات الذباب الطنان فوق هيكل الجثة لتعود فتلتئم، ومع كل حركة يفور العطن وتقل كتل العفن.

لم تعد بى قدرة فتقلصت أمعائى وأغرقنى العرق وقئتُ ما بجوفى فاضطر مُعلمى إلى أن يأخذ بيدى ويخرجنى من هذه المنطقة.

لمَّا استروحتُ النسيمَ العليل وبدأ عرقى يجف، نظرتُ إلى مُعلمى، فابتسم ابتسامة العارف وقال:

- إنما هى الطبيعة تنظف نفسها بنفسها يا ضعيف الهمة.

(٩)

رأينا وسط الحَلْفَاء خمسة من أهل الخرقة وقد قتلوا في بقعة واحدة، فاضطرب مُعلمي وناله ونالني غمٌ عظيم، غالبتُ اضطرابي فجثوتُ ورحتُ أبكي وأنهنه، فيما أخذ مُعلمي يدور حولهم ويجوس بينهم ويصرخ ويجأر:

- أي جُرم.. أية بشاعة.. أحبَّائي.. يا إخوة الطريقة..

من بين دموعي رأيته يمزق الحَلْفَاءَ ويحثوها فوقهم، فسايرته وانهمكتُ مثله في تغطية بقايا الجثث بما يتقطع في كفيَّ من أوراق الحَلْفَاء. بظتْ دمانا والتصقت قطراتها بحواف الأوراق الرهيفة وما توقفنا، وبالأغصان الجافة رحنا ننكتُ الأرض ونهيل الرمل المنكوت على المكشوف من بقايا جثثهم.

في لحظة تجمعت في عيني ألوان جلودهم.. حمراء وبيضاء وسمراء وسوداء وصفراء.. ما من بقايا جثة تشبه في جلدها بقايا الجثث الأخرى.. ومع هذا ارتدوا جميعهم الخرقة وتجمعوا في هذه البقعة لتنال منهم المنية.

لم نقف طويلاً أمام ما تكشَّف لنا، فالألم أمضَّنا، والهياج أخذ منا كل مأخذ، واجتهدنا في جمع الحصى والرمل والأغصان وإخفاء الأكتاف والصدور المنهوشة، والأذرع والسيقان المقضومة، والرقاب المقصوفة، والدماء والأمعاء والأمخاخ المنثورة فوق الأرض وعلى أوراق الحلفاء. وإذ نفعل هذا والدموع تسحُ منا سحاً، إذا بلبوءةٍ عظيمة الجرم هصورة تقف على رأسينا. كانت مِزقٌ من خيوط خرقهم لا تزال عالقة بأنيابها، ودماؤهم المخلوطة برمل ونتف من أوراق الحلفاء تخضب شدقيها ومخالبها وتتدلى من شواربها.

زأرت اللبوءة فزأر مُعلمي.

وما إن همَّت بتحريك قوادمها حتى كان مُعلمي واثباً في الهواء ومتعلقاً برقبتها. نترته فسقط فوق بقايا الجثث ليصرخ صرخة ارتجت لها الأرض

من تحتي ثم أعاد الوثب إليها ورفع إحدى قوائمها وأسقطها على الأرض. نهَضَتْ فنهضَ لها. ورأيته.. وأنا في رعبي وحيرتي أبحث عن شيء أدفعها به عنه ، وأخاف في نفس الآن أن تلتفت إليَّ.. رأيته يحاول دفعها ليقلبها على ظهرها فتقاومه، وتقف على قائميها الخلفيين، وتعصره بقائميها الأماميين، وتخمش خرقته وظهره بمخالبها فتتشقق الخرقة ويبظ الدم. عثرتُ في حَجر فانثنيتُ إليه وأمسكت به وحاولتُ رفعه فلم أستطع . استعضتُ عنه بغصن جاف، وإذ أرفع رأسي رأيتُهما مازالا واقفين ومُعلمي يباعد بكلتا يديه شدقي اللبوءة عن بعضيهما، حتى بانت لي فلطحة لسانها ونتف اللحم وخيوط الخرق المحشورة بين أنيابها. بحركة مصحوبة بصوتٍ عنيف خلَّصَتْ اللبوءة شدقيها، فأسرع مُعلمي بالضغط على فكها السفلي كيما يبعد رأسها عن رأسه، فإذا بالفكين مقفولين، وبجسدها يتراجع إلى الخلف. متردداً مسست ظهرها بطرف الغصن ، لكن مُعلمي كان الأسرع، فبحركة كالوثبة أحاط عنقها بذراع ثم قبض على رسغ هذه الذراع بقبضة الذراع الأخرى، وأخذ يضغط فخارت اللبوءة خوار الثور ، واختلج وركاها، وسقطت وهو فوقها يضغط ما وسعه الضغط. حاولتْ تخليص نفسها فلم تستطع، تمرغتْ فتمرغ معها. هالني تموج عضلاتها تحت الجلد ، وأدهشني استبساله فتشجعتُ وأمسكتُ بذؤابةِ ذيلها، إلا أنها نشَّتْ به فنالتْ وجهي منه ضرباتٌ، التهبتُ لها وابتعدتُ، ليثَبِّت مُعلمي ظهرَها بالأرض، ويضغط على رقبتها بأصابع كفيه فتنكشف بطنها كاملة وأرى اهتزازت حلماتها وخفقات صدرها.

ما أذهلني أنها مالت برأسها تجاه الأرض وتدلى لسانها من بين فكيها ، وبطؤت ضربات مخالبها للهواء. طاش صوابي وأنا أرى مُعلمي ينفلتُ إلى الحجر الذي لم أتمكن من زحزحته فيحمله. هو صاحب العود الهش والجسم

المنهك من الرياضة والعراك. في لمح من البصر عاد إلى اللبوءة ووضع قدما فوق بطنها ورفعَ الحجرَ عالياً.

في ذات اللحظة انبثقت عن الحلفاء ستة أشبال تقف صفاً وتنظر إلى ثلاثتنا بعيون بريئةٍ وأشداق عليها آثار دماء جفت. صوتتْ جميعها لوعة وخوفاً فجمدت ذراعا مُعلمي بالحجر المرفوع، وأخذ هياجه في الفتور، وما كادت ملامحه تنبسط وصرامته تخف حتى ظهر من وراء الأشبال أسدُ جهضم ذو لبدة غامقة فاستعادَ مُعلمي ما كان عليه من حمية، وعاد إليَّ خوفي واضطرابي، غير أن الأسد ربضَ إلى جوار أشباله وأرسلَ من عينيه نداء استرحام وأدنى رأسَه من الأرض، فاهتز الحجر بين ذراعيّ مُعلمي، وحركَ نظرَهُ بين خور اللبوءة المستسلمة واسترحام الأشبال والأسد المستذلين، ثم فعل ما لا يمكن توقعه من إنسان.. ألقى بالحجر بعيداً ورفعَ قدمه عن بطن اللبوءة وتقدم صوب الأسد وامتطاه.. أكثر من هذا هتف بي:

- اركب خلفي.

أظهرتُ التردد، فصرخ فيَّ:

- اركب.

وفيما تنهض اللبوءة من رقدتها، استردفتُ ظهر مُعلمي، ومتخوفاً تشبثتْ بخرقته، فأمسكَ بلبدة الأسد ولكزه في خاصرتيه لتنهض كتلة العضل وتتحرك بنا، ومن خلفنا مشت الأشبال واللبوءة مهطعات. قبل أن نغادر أطلنا من النظر إلى بقايا الجثث التي غطيناها، وما أنبأتني دموعه السَاحَّة على صفحة وجهه التي تطالعني بغير الحزن اللابد في حشاه، غير أنني فكرتُ وهزّات المسير ترْجُ أعضائي في أنَّ بعضاً من أجسام المقتولين الخمسة تذوب في جوف الجسم العضلي الذي نمتطيه.

لمَّا تلاشت الغابة من ورائنا وصرنا وسط الصحراء، سألته عن وجهتنا أجاب من بين دموعه:

ـ لا أدرى.

وظل الأسد يمضى بنا بخطو مستذل، ومن ورائنا تقاطرت اللبوءة والأشبال الست، وكان فضاء الصحراء من جولنا واسعاً.. واسعاً جداً، وخيل إلىّ أننى رأيتُ الغزالة تتبعنا فى البعيد، فساورنى، على ما نحن فيه من خطر، بعضٌ من فرح .

أنا ومعلمي والكريهة

(١)

حذرنا غيرُ واحد:

ـ لا تتجها هذا الاتجاه

ـ المَنيَّة تُسدُّ طريقكما.

ـ اليوم يوم المَقْتَلَة.

أرعبنا انهمارُ الطلقات والقذائف فاحتمينا بجدار.

بعد أن ترتبتْ أنفاسُنا ، واعتدنا أزيزَ الرَصَاص ودَوِيَّ القذائف ، قال مُعلمي:

ـ في يوم كهذا ، في مكان كهذا، احتمى ثلاثة من الجنود اليائسين بجوف خندق وتنادوا. قال الأولُ: مَنْ لي بدمٍ لا يفور وصدرٍ غير قابل للانفجار، وقال الثاني: ليتَ لي حنجرة لا تهدأ وذراعاً لا تكل: وقال الثالث: عينٌ قادرة على فك شفرات الاقتتال، فقط هي كلُّ ما أطلبه، كلُّ ما أطلبه يا ناس؟.. عندئذ دهمهُم آمرهُم وهتفَ بهم: أيها الواهنون الموهنون لُمُّوا أرديةَ الهوانِ التي تتسربلون بها واحملوا أصواتَكم وأسلحتَكم وهيا اصحبوني إلى المَعْمَعَة، فصحبوه وما عادوا وما عاد آمرهُم.

ثم نظرَ إليَّ وسأل:

ـ أتعرفَ لماذا؟

سألتُه بدوري:

ـ لماذا؟

لم يُجبْ.. فقط شَدَّ من خرقته وتركَ الجدارَ، فتركتُه بدوري وتبعته، وكنتُ أعلمُ أنَّ مُعلمي إنما إلى المقتلة يقودني.

(٢)

فى الطريق قلتُ لمُعلمى:

ـ يا مُعَلِّمَ.. الحربُ لا تُفَرِّق بين تلميذٍ ومُعَلِّم.

فنظرَ إلىَّ. فقط نظر إلىَّ ولم يتكلم.

(٣)

قلتُ له:

ـ كيف نشقُّ الصفوفَ بلا دروع أو أسلحة؟

فلم يرد ولم ينظر إلىَّ حتى.

(٤)

قلتُ له:

ـ من يُقْبِل على المَنِيَّةِ برغبتِه كمَنْ يحتضن الأفعى عَارياً.

ومع هذا مضى بحزم أشد صوب مناطق المواجهة.

(٥)

فى المنطقة المحروقة، هالتنى ضخامة جثة الضابط الكبير وقد مزقتها الشظايا وطرحتها فوق الهشيم والرماد، لكن مُعلمى أشار إلى الاتجاه المعاكس وقال:

ـ انظر إلى هذه الجثة.

لم تكن هناك ثمة جثة مكتملة أو منقوصة.

قلتُ:

ـ ما من جثة يا مُعلِّم.

قال:

ـ دقق.

دققتُ فتبينتُ عصفوراً ملقى، ريشُه فى لون الزرع المتيبس.

قلتُ:

ـ هي جثة عصفور.

حرَّكَ إصبعاً إلى مكان غير قريب، فإذا بنخلة انقصفت وانغرست هامتها في وحل ومهمات جنود.

سألني مُعلمي:

ـ ألا تستشف مما ترى شيئاً؟

قلتُ:

ـ الموتُ لا يفرِّق بين كبير وصغير، ولا بين آدمي وطائر ونخلة.

قال:

ـ ليس هذا ما قصدتُ.

قلتُ:

– الموتُ أراحَ الطبيعةَ مِن بطشةِ الضابط، وحرمها مِن تغريدة العصفور، وسلبها ثمر النحلة.

قال:

ـ وما هذا قصدتُ.

قلتُ:

ـ فلعلكَ يا مُعلم تقصد أنَّ الموتَ صرعَ الجميع بشظايا ذات القذيفة أو ذات القاذف.

قال:

ـ اقتربتَ.

قلتُ وقد بزغت في رأسي:

ـ جميعهم صريع الإنسان.

فقال:

ـ أصبتَ.

ثم ربَتَ على هامة النخلة، وقادني إلى خارج المنطقة المحروقة تاركاً الجثث الثلاث في العراء.

(٦)

مررنا ببستان أجرد حصدتْ النيرانُ أشجارَه الكثيفة، ومزّقتْ القذائفُ زروعَه القصيرة، وتحت الجذوع المُدَخَّنة تراكمتْ جثثٌ متفسخةٌ مختلطة بأسلحةٍ وخُوَذٍ ومعدات. بالنتن الفائحُ منها امتزجتْ روائحُ الخضراواتِ المفدوغة.

لمَّا ثقل صدري، هتفتُ :

ـ يا مُعلِّم.. صَدْرُكَ وصَدْرِي.

التفتَ إليَّ فقلتُ:

ـ ندورُ ولا نجوس.

لكنَّه جَاسَ وسطَ الدخان وركامِ الجثثِ والأشياءِ، وأنا مِن ورائه أختنقَ .

كاتماً أنفاسي اقتفيتُه، ومثله تفاديتُ وطء طوابير النمل والخنافس والسحالي التي لَغَتْ فيما أتاحته لها الجثث المتفسخة، وهرولتْ بما حَمَلَته منها إلى جحورها.

توقعتُ أنْ تأتي عقبان الطَير فأتتْ ، وضباع البَرِّ فجاءتْ ، وأسراب البعوضِ والذبابِ فحطَّتْ، وما كنتُ لأتوقَّعُ أنْ تُريني تعرجاتُ خُطى مُعلمي ما رأيتُ ، لكنها ـ وياللروعةِ ـ أرَتْنِيه، فأخذتُ..

(٧)

شجرة برتقال:

شجرةُ برتقال واحدة وحيدة.

شجرة برتقال خضراء ريَّانَة.

ويا للمفاجأة، مثمرةً كانت، تامةَ الثمر.

البرتقالُ كاملُ النضج والاستدارة.

وسط فضاءٍ أجردٍ محروثٍ بالقذائف تقفُ الشجرة وقوفَ الأم الحبْلَى.

إليها اتجه مُعلمي واتجهتُ.

مدَّ يدَه وأمسكَ ببرتقالةٍ، وأذنَ لي:

- مد يدكَ.

فمددتُ يداً مُرتَعشةً ونلتُ واحدةً.

لم أنتزعها، وإنَّما هبطتْ إلى راحتي طائعة مطواعة، وفيما أحيطُ البهاءَ المستدير بأصابع الكف الراقدة فيه أحالتْ أغصانُ الشجرةِ الريحَ المتخمة بالعفن والبارود إلى همس رقيق يعبقُ برائحةٍ زكيةٍ.

خُيِّلَ إليَّ أنها تقول:

- أهديكما ما أخذتما عن طيبِ نفس.. خُذا من ثمري ما تشاءان.. خُذا.

وقالَ مُعلمي، وهو يعيدُ مدَّ يده:

- لا ترفض طلباً لهذه الشجرةِ الكريمة.

وأنا أغزُّ أسناني في البرتقالةِ لأمتصَ عصيرَها، خايلني خاطرٌ بأنَّ شبهاً كبيراً يصل أسناني بالقذائف التي بقرت الأجسادَ المحيطة بنا، وتساءلتُ أترى خاطراً مماثلاً قد خايل مُعلمي. لحظتها التفتَ إليَّ مُعلمي وسلَّط عينيه على عينيَّ، ففهمتُ أنه إنما يتحقق من أنني مهمومٌ بالبحثِ في خفايا ذلك الخاطر، فيما تصارعتْ فوق الجثث حدآن، وبغثان، وشواهين، وغربان، فتقلقلت الجيفُ، وقعقعتْ الأسلحة وقرقعَ العتادُ، وتفرّق البعوضُ والذبابُ وفاحَ العطنُ والعفنُ، ليصبح وجودنا وسط هذا الخراب أمراً مستحيلاً. إذ نغادرُ قرأ مُعلمي خاطري فقال:

- نعم.. في العالم أشجارٌ مماثلة..

وصمتَ برهة ثم أعقب:

- لكنها جد متباعدة..

وأضافَ:

- .. وقليلة.

ومِن فوقنا أزّت الطائرات المقاتلة ونالتْ مِن زرقةِ السماءِ برقشات انفجارات كثيفة.

(٨)

هي أمتارٌ من رمال ووجدنا نفسينا أمام غابةٍ من البنادق المنَكَّسَة. حرابُها مدفوسةٌ بين رمالٍ وحجارةٍ، وفوق دباشكها خُوَذٌ ليستْ كخُوَذِ مَن خلَّفْنَا أشلاءَهم في البستان. ومثلما كان الحالُ هناك، اختلطتْ الأسلحة بالعتاد هنا، وتوزعتْ الحفرُ والحرائقُ، إلا أنَّ الجثثَ اختفتْ تحت حِراب البنادق المنَكَّسَة.

نظرَ إليَّ مُعلمي فظننتُه ينتظر مني قولاً.

مع هيبتي مِن وجودي في حَضْرَةِ الموتِ قلتُ:

- هنيئاً لهؤلاء مأمنهم مِن السباع ووحش الطير.

لكنه أشار بعينيهِ باتجاهِ حَرْبَتين، فإذا بذنَبِ ثعبان يتلوى دافساً رأسَه في فجوةٍ بين صخرتين، وإذا بسحابةٍ مِن طيور الرَّخمِ تحومُ فوق الخوذات، وأتانا مِن حيث لا نعلم عواءُ بناتِ آوى، فقال مُعلمي:

- ورائي فامض.

فمضيتُ ممنياً نفسي بانفلاتٍ سريع قبل أنْ تنشبْ معركةٌ أخرى بين الكواسر والجوائم.

(٩)

بين الخنادق والدُشَمِ المتقابلةِ سارَ مُعلمي.

في إثرهِ أخذتُ أظلعُ مُحاذراً الألغامَ وشراكَ الخداع ومغالباً رغبتي في النكوص.

وسط المَعْمَعَة غلبني خَوفي، فقلتُ:

ـ خرقتانا لن تنفعانا يا مُعلِّم.

ما إنْ قلتها حتى ثَقُلَ القصفُ الخفيفُ، واقتربَ الرَمىُ البعيدُ، وتدخنَ الهواءُ وتناثرتْ الشظايا والأتربةُ بدَوِيٍّ وقعقعةٍ ودمْدَمَةٍ وأزيز، وما توقف مُعلمى .

(١٠)

هتفتُ به:

ـ هى الكريهة يا مُعلِّم، فانج بنفسكَ كيما أنجو بنجاتك.

لم تمهلنا القذائفُ فتفجرتْ من حوالينا لتتطاير أجسادُ وأرديتُها، وأسلحة ومموهاتُها.

صاحَ بنا جنود الجبهتين:

ـ أيها الضيغمان ابتعدا.

ـ انبطحا.

ـ ازحفا.

وكان أنْ نالتْ الشظايا مِن مُعلمى ومنِّى، وتخضبتْ خِرقتانا بدمَانا، ومع هذا مضى مُعلمى يتنقل بى فى مسيرٍ ملتوٍ بين الجبهتين.. إلى اليمين تارة، وإلى الشمال أخرى.

حَفَّتْ أقدامُنا بتلال الرؤوس المشجوجة والأصلاب المدقوقة والأصداغ المخسوفة، وساختْ فى الأمعاءِ المفجورةِ والدماءِ المسفوكة، وبانَ علينا التعب.

(١١)

ناشدته :

ـ يا مُعلِم راع نفسكَ.. يا مُعلم راعنى.

لكنه أبداً ما توقف، وأبداً ما كفَّتْ الجثثْ أوتوقف الحديدُ والحصى عن الانهمارِ من حوالينا. مِن فرطِ الهول بلغتْ روحي حُلقومى فاجترأتُ ورفعتُ

جهيرتي وصحت:

- يا معلم توقف.. هي التهلكة يا معلم فتوقف..

وأدرته عنوة لينظر إليّ وإلى ما يحيط بنا. كان وجهه وكل ما يبين من جسمه مكسواً بالدم. هززته وبكيت :

- قلتُ لكَ توقف يا معلم ..

فقط نظر إليّ بعينين محتشدتين بصور الانفجارات والشظايا.

(١٢)

ارتقينا هضبة فإذا بدمدمةٍ ودبيبٍ وعفار، وإذا بسرايا للمشاة تأتي من خلفنا وتحاذينا وتتخطانا. أسلحتهم مُشرعة، وخوذاتهم فوق رؤوسهم، والذخائرُ والسناكي والجواريف مثبتة إلى خصورهم، وتتأرجحُ فوق ظهور بعضهم أجهزة الإشارة وهوائياتها، في مشيهم ترتفع أرجلهم وتنخفض فتدق سطحَ الهضبة بخطواتٍ تنم عن عزم وحزم وإصرار: تحفهم دراجات بخارية وعربات جيب، وتتبعهم صهاريج ماء ووقود ومطابخ متحركة وسيارات إسعاف.

وكانوا يهدرون بالغناء:

إلى الوغى نحن ذاهبون

إلى النصر نحن مقبلون

وكان من اليسير علينا أنْ نلمح اتساع بقع العرق الداكنة تحت آباطهم، وعلى شدّات الميدان التي يرتدونها.

في نفس الوقت رأينا أسفل الهضبةِ طوابير من جنود الجيش الخصم آتية من الاتجاه المعاكس. مشاة أيضاً. يحملون أسلحة ومعدات مشابهة، ويتقلقل تحت كعوبهم حصى ويثار عفار، ويهدرون بغناء مماثل:

«جئنا لنقتل العدا»

«جئنا نروم السؤددا»

ومن هول مـا هو كـائن لم يلتـفت هؤلاء إلى أولئك، ولم ينتـبـه أولئك إلى هؤلاء.

توقف مُعلمى فى مكانه تحسباً لما قد يحدث، وما كان لى إلا أنْ أحتذيه، لكن الفريقين انصرفا من فوق ومن تحت، ولم يُخلفا سوى سحابتين من غبار صارتا سحابة واحدة احتوتنا وحالت لفترة بيننا وبين استئناف المسير.

ومع يقينى من أنَّ غرابة المشهد كانت تشغل بال مُعلمى مثلما هى تشغل بالى ، فإنه أتى بما لم أتوقعه منه، أشار إلىّ بإصبع ارتفع إلى قمة رأسى وهبط حتى إخمص قدمىّ، وقال:

- لاشك أنكَ ترانى مثلما أراك شبحاً مكسواً بالغبار.

- لم أملك نفسى فضحكتُ لمَّا نظرتُ إليه فالغبار أضاف إلى هيئته هيئة عجيبة شاركنى مُعلمى الضحك بل القهقهة، وظللنا نضحك ونقهقه والغبار يندفس بين شدقينا فنذيه بألسنتنا فيلتصق المزيد فنضحك معرضين أنفسنا لهلاك محقق لوْ انتبه إلى ضحكتنا الفريقانِ أوْ أحدهما.

(١٣)

ارتجّتْ الأرضُ، وفارتْ التنانيرُ واحتوتنا كُرةٌ من لهبٍ فوثبتُ إلى مُعلمى واخترقتُ به السعيرَ المتقد وتدحرجتُ وإياه من فوق الأشلاء والشظايا، وإذ ننهضُ عاريين تماماً من خرقتينا، بعدما تناهشتهما الأشلاءُ والشظايا، توقف القصفُ تماماً وخرجَ الجنودُ من خنادقهم.. منْ الجبهتين خرجوا.. ومن ورائهم ظهرتْ المجنزرات والمدافع الثابتة وناقلة الحركة، وارتفعت الراياتُ البيضاءُ فوق كل ما هو مرتفع.. زحامٌ من الرايات البيضاء ما كنتُ لأعتقد وجودها بين عتاد جنود الجيشين.. من الاتجاهين تكاثفتْ رفرفاتها لدرجة لم أعرف معها إنْ كانتْ كلتا الجبهتين قد تبادلتا الإستسلام، أم أن كلتيهما قد استسلمتْ لمُعلمى ولى لمَّا انخلعت الخرقتان وصرنا عريانين.

(١٤)

طافت عينا مُعلمى بالجثث المسجاة ثم ثبتتا علىَّ. عرياناً مازلتُ ، وعرياناً مازال. تأهبتُ لما سينطق به. لم يستثره عرينا. شىء آخر استثاره، فقال:

ـ الحربُ سريرُ الموت.

(١٥)

طوابيرُ طويلةٌ من النَقّالات أحاطتْ بنا.

نَقّالات كاكية ورمادية ولا لون لها.

فوقها وفوق الأوحال تتمدد أجسادُ الجنود.

قليلها مُغطى بملاءات من مشمع أو قماش، وأغلبها عارٍ إلا من نتف الأفرولات المُضَرَّجَة بالدم والوسخ.

خُوَذاتٌ مثقوبةٌ ، وأحذيةٌ ممزقةٌ، وجرابنديات مبقورة، وكلها مُحمَّرٌ وملطخٌ بالطين.

هررةٌ تجرى بما التقطته من قشفات اللحْم، وكلابٌ تجتهدُ فى جَرِّ أمعاءِ البطون المفجورة ونَتْش العظام من الأطراف المبتورة، والنَقّالات تُقَلِّبُ بما عليها فى أجواف المروحيات الجاثمة على الأرض، وجنودٌ من الجانبين ينتحبون.

لا قصف، لا انفجارات، وأنا ومُعلمى عاريان تائهان يرهقنا البحثُ عن خرقتينا، والسماءُ حمراءُ بلون الدم.

وددتُ لو قلتُ كلاماً، لكننى لم أفه بكلمةٍ ليقينى من أنَّ مُعلمى، المثخن مثلى، لن يُسمعنى رداً أو إجابة.

ما تيقنتُ منه حدثَ فعلاً، فقد ظلَّ يجوس صامتاً بين الأشلاء والمدرَّعات والمركبات والمدافع والمروحيات التى بادلتْ صمتَه بصمت مماثل، إلى أنْ عثرتُ بين الحطام والطين على خرقتينا، فتهللتُ وناديتُ ملوحاً بهما:

- الخِرقتان يا مُعلم.. الخِرقتان.

توقف. من خلفه كانت مروحيات تُصعدُ وأخرى تهبط، وإليها ومنها تتقاطر طوابيرُ النَقّالات. مقاوماً بعريه عصف المروحيات نظرَ إليّ وقال:

- احذر.. لغمٌ بين قدميك.

(١٦)

أمام صنبور من صنابير العامة جلسنا. عُنيتُ بغسل الطين وإزالة رائحة البارود عن جسمي وخِرقتي، فيما عُنِيَ مُعلمي بغسل الدم.

سألتُه:

- ألا تبدأ بالطين وغبار البارود يا مُعلِّم.

قال:

- الأعسر فالأيسر.

لجِجتُ:

- لكن الدَّمَ متخثرٌ في الجروح، فيما الطين والغبار فوق الأدُم.

قال:

- هذا أدعى للبدءِ بالأكثرِ غورا.

متردداً جاريته.

(١٧)

الهيبة سُبقتْ وصاحبتْ الجنازةَ العسكرية. ولمَّا كنا قد رقَّعْنا خرقتينا فقد وقفنا مع الواقفين ولم نسرْ مع السائرين. السائرون كُثُرٌ ومهندمون.. قارعو طبول، ونافخو أبواق، وحاملو أوْسِمَة ، ورافعو رايات، وضباط فوق أفراس مُزَيَّنَة، وجنودٌ متصلبون، وبنادق منكسة، وعربات تجرّ مدافعَ رُبِطتْ بها نعوشٌ تجثم فوقها زهورٌ وشارات. نعوشٌ لا حصر لها ولا نهاية لموكبها، حتى أنَّ المشيعين، من أقاربَ الموتى، أولئكَ الذين أذاعتْ الإذاعات سَماحَ الحاكمِ لهم بالسيرِ في الجنازة، لم تبد لهم أية بادرة، حتى من بعيد البعيد.

أذرعَ الواقفين على الضفتين تُلَوِّحُ، وعيونهم تبكي، وألسنتهم ترْعدُ إذ تُوَدِّع. ونحن مجرد كائنين غريبين مكسوين بخرقتين مرقَّعتين. ترهقنا الدماءُ التي نزفت منا.

أشار معلمي برأسه تجاه حشود الموتى المارين من أمامنا ثم نظرَ إليَّ وقال:

ـ قل قولاً فيما ترى.

ارتجَّ عليَّ.

ردَّدَ دون أنْ يرفعَ بصرَه عني:

ـ سألتكَ أنْ تقولَ قولاً فيما ترى.

منْ محفوظاتي القديمة قلتُ:

ـ المَوْتُ فَوْتٌ.

عندئذٍ افْتَرَّتْ شفتاه عن ابتسامة، ما كانت لتصدر في مثل موقفنا إلا عنه. ظننته قد سُرَّ من إجابتي، لكنه ما لبثَ أنْ عاودَ النظرَ إلى النعوش وقال:

ـ لا.. الموتُ عَوْدٌ.

ثم وجَّه بَصَرَهُ إلى أديم الأرض التي تحملُ كلَّ هذه الحشود.

(١٨)

أمام المَشْرَب تتطعتْ غيدٌ بغايا. صَعُبَ علينا المروقُ من بينهن. إلا أنَّ معلمي أفلح في جَرِّي واجتياز المدخل دون رفقتهن. كان المَشْرَبُ غاصاً بالسكارى والنُدُل. أشار تجاه ثلاثة من السكارى ونادل وأمرني بالمراقبة. كانوا جنوداً مهدلي الثياب. صخبهم عال وجروحهم لا تزال تشخب من تحت الأربطة دماً.

نادى أحدهم النادل:

- تعال.. اسقنا الكأسَ بعد الكأس فالبُغضُ أحاط بنا والنياشين هرستها الأقدام.

وقال الثاني:

- نعم.. تعال.. تعال واترعْ هذه الكؤوس وأتنا بناهدةٍ تُنْسينا ما نحنُ فيه من كدَر.

وناجاهُ الأخير:

- أعمارُنا من ورق.. أفعالُنا من ورق.. والورقُ احترق.. فاطفئ بخَمْرِكَ ما لمْ ينله الحريق، وهات مَن نُوقظ بها لهيب غُلْمَتنا.

من فورهِ قبضَ الساقي على ذراع بَغِي، وهَمَّ بسحبها إلى حيث يجلسُ الجنودُ المخمورون، لولا أنـَّها استعطفته:

- ابعدني عن هؤلاء الثلاثة، فليس أقسى على المهزومِ من المهزوم.

لحظتها نظرَ إليَّ معلمي نظرة ذاتَ مغزى ثم قادني إلى خارج المشْرَب، وفي ضباب السراب البعيد لاح لي طيف الغزالة، ومن بين الرمادي الذي اكتنفها لمحتها فيما خيل إليَّ تظلع، وميزتُ حُمرةً تصبغ كشحها وتغطي كفلها، فأصابني دهش.. أتراها مرتْ بكل ما مررنا به؟ .. ومن الهيئة التي تلبستْ ظهر معلمي ساورني حَدْسُ بأنه رأى ما رأيت، فعجبتُ لم لا يناديها أو يتجه خطوة نحوها فاتجه معه!

الرؤية والإدراك

(١)

لم يكن معنا سوى قربة ماء ومخلاة بها جفنتين من خشب وقبضة ملح وحفنة من دشيشة قمح. علقت القربة بكتفي والمخلاة برقبتي وسرتُ في إثر مُعلمي إلى حيث لا أعلم. لما أسغبنا المسير وألغبنا تقاسمنا الدشيشة والملح وشربنا ما صببته في الجفنتين، بعدها التفت إليّ مُعلمي وقال:

– أحِن لرؤية الغزالة .

من فرط المفاجأة سقطت القربة عن كتفي وانبجس منها الماء فامتصته الأرض، ومع أننا صرنا بلا طعام أو ماء، فقد غمرني قدر من الارتياح عظيم.

(٢)

قطعنا الصحراء التي عرفتنا وعرفتها، فلم نجد غير العقارب والجرابيع والخنافس والأصلات.

في المروج رأينا تحت ظلَّة من يمام طواويس وطيور ودواب بهيجة الألوان والأشكال، لكن بهجتنا ما كانت لتتحقق بغير رؤية الغزالة.

ارتقينا الهضاب والجبال، فلم نلق سوى تيوس وجديان ونموس وقردة.

في الأحرش راقبتنا من مراتعها قطعان من ظباء ووعول وآيائل وجواميس وحُمرُ ليست من بينها الغزالة .

مع ما نحن عليه من إجهاد وجوع وعطش، ساورني يقين بأننا سنلتقي بها لا محالة، وأنها قريبة منا، وإن لم يلح لأعيننا منها جسد أو ظل .

(٣)

استعدتُ هيئتها حينما أبعدها مُعلمي عنا يوم دخلنا مدينة اللذة

والانبساط وتركناها عند حافة الصحراء، ودخلتنى الحسرة التى رأيتها فى عينيها وهى ترنو إلينا قبل أن تغيبنا عنها بوابة تلك المدينة، فهجستُ «أترى الحسرة قد صارت عندها غضباً؟، وعزمتْ على مفاتحه مُعلمى بما هجستُ ، لكننى استهولتُ هذا العزم فسكتْ وتابعته في بحثه المنهك لقـواه وقواى.

(٤)

لما لم أعد قادراً على التحمل نطقتُ :

– لعل الحنين وحده غير كاف لاستعادتها يا مُعلم.

نظرا إليَّ ففهمتُ أنه فهمني، لكنه لم يأت بما كنت أرجوه من، فقط قال:

– لا تقعدْ.

(٥)

بالقرب من أجمة وغدير رأينا ما ليس بمتوقع. فهدٌ مرقط فى مواجهة الغزالة. غزالة معلمي. الغزالة التى أنهكتنا، كل منهما يواجهه الآخر. الفهدُ متحفز وكتل العضل فيه متواترة بالاهتزاز، أما الغزالة المصبوغ كشحها وكفلها بحمرة الدم ففى وضع بين الدفاع والهجوم .

أصابنى رعبٌ وتوقعتُ أن يفعل مُعلمى مع الفهد ما فعله مع اللبؤة، لكنه لم يفعل. الغزالة هى التى فعلت. هجمت على الفهد. نفس الأمر أتاه الفهد. هجم على الغزالة. تبادلا الوثوب والضرب، هى بالقوادم وهو بالمخالب. الفهد قوى باطش، والغزالة جريئة رشيقة. تبدو مجهدة لكنها متماسكة . كأننى فى حلم أرى فيه الغزالة تطير من المقابل إلى المقابل، تركله من أمام ومن خلف وتطعن برأسها جنبيه وتهش بذيلها فى عينيه ، تعتليه ثم تخليه لتعودَ لتعتليه ثم مرة أخرى تخليه، تجتهد لتسقطه، ويجتهد ألا يخور. أداختـه فترك لها الأجمة والغدير وانصرف انصراف المخَوَّف وهى خلفه تطارده.

نظرتُ لمعلمى مستغرباً اكتفاءه بالمشاهد دون إتيان أى فعل يستبقى به الغزالة، فرد على نظرتى بسؤال مغمور بالفرحة:

- هل رأيت يمامة تطارد صقراً؟

ثم سار بى بالاتجاه الذى اختفت فيه الغزالة.

(٦)

رأيناها واقفة كأنما تنتظرنا. خلفها حشائش خضراء وحمراء وصفراء. زرقه الأفق فى الأعلى والبعيد يتغشاها رماد السحاب، وخدشات الفهد خطوط دامية فوق جسمها المصبوغ بالأحمر.

من اختلاجة جسم معلمى أيقنت أنه سيطببها ويمحو عنها غضبها علينا. بالفعل أتى ما أكد هذا اليقين، مد يداً وهم بمناداتها. ما حدث لم يكن فى الحسبان. تقدمت نحونا ففرحنا ، لكنها بوثبة تجاوزتنا. من فورنا استدرنا فإذا بها تضرب وحشاً غريب الهيئة كان يهم بالهجوم علينا من الخلف. بعد تناثر سريع لذؤابات الحشائش والرمل والحصى فر الوحش، لنجرى صوبها مدفوعين بالامتنان لما فعلته من أجلنا، إلا أنها نظرت إلينا نظرة متعددة المعانى ، فلكأنها تقول : أنا معكما ولست لكما، أنا غاضبة منكما ومتيمة بكما، أنا آتى من أطلبه لا من يطلبنى، أنا حرة: ثم تركتنا والمكان وانصرفت، فتوقف معلمى عن ملاحقتها والبحث عنها .

(٧)

سألت معلمى:

- أما عدت تحن للغزالة؟

بسؤال أجاب:

- كيف أحن لها وهى معى؟

ولأنه بدت علىّ أمارات عدم الفهم قال:

- الرؤية ليست شرط الإدراك..

وعدنا أدراجنا بدون قربة وبمخلاة خالية إلا من جفنتين من خشب.

قال مُعلمى: شيخى يحتضر

(١)

تَغَشَّتْ عينىّ مُعلمى غمامةٌ خلَّفَتْ ، لمَّا انقشعتْ، بعضَ عبراتٍ احتُبِسَتْ فى ماقيه وترَقرَتْ.

قلتُ أسأله:

- ما بكَ يا معلم؟

اقتبضَ الورقةَ المطويةَ بكفه وقال:

- شَيخى يحتضر.

سكتُ لجَلل الأمر ، لكنه لم يُمرِّر سوى هنيهةٍ ثم أمرَنى:

- أعِدَّ ميرَةَ السفَر.

فنهضتُ وأعددتها.

(٢)

فى الطريق رأى كلبةً تلهثُ فأعطاها من الميرَةِ ما تأكله الكلاب.

ورأى هرة تموء فأعطاها من الميرَةِ ما تأكله الهررَة.

ورأى فسيلةً منثنية من ذبولٍ موشك فرواها ببعض مما نحمله مِن ماء.

كلٌّ هذا وأنا أتعجب لأمـــرِه فالطريقُ إلى دارةِ شيخه، كما أعلمنى، طويلةٌ.

قلتُ :

- يا معلم.. احسبْ للطريق حسابَها.

قال:

- الطريقُ إلى شيخى محفوفةٌ بعجقةٍ وهزالٍ وذبول.

ولم أفهم مَقْصدَه.

(٣)

بعد مسير طالتْ مشقتُه نفدتْ الميرَةُ، وما عادَ معنا ما نتبلغْ به أو نشربه، واشتدَّ بنا الجوعُ، وألغَبَنَا العطشُ، فقلتُ:

- لو لم نُطعم الكلابَ والهررَةَ ونسقى الفسائلَ...

نَهرني:

- مَهٍ.. يا قليل العقلِ أكففْ.

ثم قال:

- الجوعُ لنا رياضةٌ، والعطشُ لنا مَكرُمَةٌ، فاهدأ ولا تضطربْ.

قلتُ :

- الجوعُ رياضة قولة ما أكثر ما علِمْتُ مراميها، لكن كيف يكون العطشُ مَكْرُمَةُ .

قال:

- قال شيخى: لئلا ننسى أننا مِن الماءِ وبالماءِ نعيش.

(٤)

التقانا بدوى على ما نحن فيه مِن جوع وظمأ ، فقادنا إلى مضربِ قبيلته، ومَدَّ سِماطاً وضعَ عليه أطايبَ الطعام والشراب، وقال:

- كُلا هَنيئاً واشربا مَريئاً.

هَمَمْتُ بالهجومِ إلاَّ أنَّ مُعلمى استوقفَ كفىَّ وهَمَسَ فى أذنى:

- لا تستوحشْ فى طعامكَ، ولا تعب فى شرابكَ.

وأكلَ وشَرِبَ أقلَّ القليل، ومُكْرَهاً احتذيتُه.

وإذ نحتسى القهوة مِلتُ إلى مُعلمى:

- ما مسحَ أكلى جوعى، وما روى شُربى عطشى.

فمالَ علىَّ وقال:

- قال شيخى: أكلُ اللقيمات عليه تبعات، وشُرْبُ الجرعات له تعلات.

ثم شكرَ البدوىَ وقادَنى لننصرف.

(٥)

تحتَ سنطةٍ تمدَّدَ مُعلمى وقال:

- سأنام.

وتحت السنطة المواجهةِ جلستُ وقلتُ:

- سأحرسكَ.

غشيتنى غفوة انتفضتُ منها مفزوعاً على أفعى رقشاءٍ ذنَبُها بين فخذىّ مُعلمى ورأسُها يتوسط حقْوَه.

أُلْجِمْتُ وحُبِسَتْ الصرخةُ فى حَلقى ولم أدر أى فعلٍ أقومُ به.

أنهضُ لأقتلها، أم أمدُّ كفاً وأقبضُ على عنقها، أم أصرخُ لأوقظه؟

لَمَّا زحَفَتْ ، منْ كَشْحِهِ حتى تَرْقُوَتِيه، ولم ترف له عين، أُلْهِمْتُ فأمسكتُ بحطبةٍ تُجاورنى وجَثَوْتُ على ركبتىَّ وقلتُ أنزعها قبل أن تلدغه، لكنها كانتْ قد انسربتْ من ناحيةِ عنقه إلى ترابِ الأرض واختفتْ.

عندها فتحَ مُعلمى جفونَه، ومستنكراً ما أنا عليه، نطقَ:

- يمتطيكَ الرُّعْبُ مِن أفعى؟!

قلتُ:

- خشيتُ عليكَ يا مُعلم مِن موتٍ زعاف.

قال:

- مَنْ تَلَقَّى عن شيخ كشيخى ما خافَ دابة أو زاحفة أو سابحة أو طائرة..

ثم هتفَ:

- انهضْ.

فنهضتُ ونهضَ، ولدهشتى لم أر أسفلَ منه أو مِن حوله أى أثرٍ للأفعى.

(٦)

لمَّا لاحتْ لنا المَحلَّةَ التى بها دارةُ شيخ مُعلمى، قلتْ:

ـ امْنُنْ علىَّ يا مُعلم ببعض ذِكْرٍ عن شيخكَ.

فقال:

ـ هو كَنْزُ العلم وخزانة الحلْم. لسانُه أفصحُ لسان وبيانُه أوضحُ بيان، أيامُه مجالدة ولياليه مُجَاهَدة، براهينُه ظاهرةٌ وكراماتُه زاهرة. قبْلَةَ أهل البلاءِ ومَطْمَحُ أصحاب الرجاءِ هو. أدَّبَنى أحسن تأديب وهذبَنى أتم تهذيب، وإنْ كنتُ قد قَصَرْتُ عن أنْ أكون فى مثل حالِه فالعيبُ فىَّ لا فيه.

استحثثتُه لَمَّا توقف:

ـ زِدْنِى.

قال:

ـ هو فى ساحاتِ الوغى ضيغمٌ ، وفى الغيطِ فلاَّحٌ، وفى البحرِ ملاَّحٌ، وفى الباديةِ بدوىٌّ، وفى الخماراتِ سِكِّيرٌ، ومع البغايا فحلٌ داعر.

قلتُ :

ـ اقصصْ علىَّ بعضاً مِن أفعاله يا مُعلم.

قال :

ـ تصدى ذات معمعةٍ لوابلٍ مِن مقذوفاتِ الأعداء بنفخةٍ وردَّهَا جميعاً إلى الأسلحة التى انطلقتْ منها فدَمَّرَهَا، وأفرغ ذات احتفالٍ برميلىّ نبيذٍ فى جوفه وما ترنَّح، ومسَّ مرة كَفَّ بَغى بكفِّه فأولدَها.

قلتُ:

ـ فيكَ مما قلتَ عن شيخكَ بعضُ ملامح. فأية أفعال آتاها ولم تأتها يا معلم؟

قال :

ـ كنتُ فى فريق من تابعيه نخوضُ فى الصحراء وأصابَنا عطشٌ كبير، فتَفَلَ فوقَ الرمضاء، فإذا بالتَفلَةِ تستحيلُ نبعاً سالَ الماء على جوانبه جداولا، منها شَرِبْنا، وفيها اغتسلَنا واستبرَدنا، حتى إذا أمرَنا بالمغادرة غارَ النبعُ وجفتْ الجداول..

وأكمل:

ـ .. في جوٍ عاصفٍ مُمْطرٍ اصطفاني وأركبَني قارباً نحيلاً شقَّ به وبي ثبجَ البحر، وقال ستَمُر بتجربةٍ ذات شأن، فإذا بحوتٍ يهمُّ بابتلاعنا، فأصابني رَوَعٌ عظيم، لكنه وبحركةٍ لا يأتي بها سوى شيخي باعدَ بين فكي الحوت بمجْدافه، وأخذ مني مجْدافي وأخذ ينغزُ جسمَ الحوت حتى أغْطَبيَه؛ ويمجداف واحدٍ أوصلني والقاربَ إلى برِّ الأمان وسط دهشة حرس السواحل الذين كانوا تحت المطر يرقبوننا ويعجزون، لنقص في أدواتهم وهممِ أبدانهم، عن مقاومة المطر والريح والحوتِ وحمايتنا.

قلتُ متحسراً وكنا قد وصلنا إلى المَحَلَّة:

ـ ومع هذا شيخكَ يحتضرُ يا مُعلم!.

أدارَ رأسَه إليَّ وقال:

ـ هو ناموسُ الطبيعة.

ومن حولنا بدأ الناسُ يظهرون.

(٧)

عِنْدَ الدارةِ رأينا كثيرين في خِرق مثلنا وخُلْقَان، يقفون أمامَها، ومن حولها يدورون .

قيل:

ـ هو في الصَوْمَعة.

(٨)

غصَّتْ الطريقُ إلى الصوْمَعةِ ببشرٍ كثيف، وفيما نسعى لنقترب من مدخل الصوْمَعة إذا بأصواتٍ تتنادى:

ـ الشيخُ ليس في الصَوْمَعة.

ـ الشيخُ غادرَ الصَوْمَعة.

ـ الشيخُ اختارَ الموتَ وسطَ الطبيعة.

(٩)

هي النفرةُ نفرها الجميع.

إلى الهضابِ معهم انتقلنا، ومنها إلى الفيافي ثم الغيطان، وما عثرنا للشيخ المحتضرِ على أثر.

أيِس الجميع إلا مُعلمي.

على الرغم مِن المشقةِ التي نالت من جسدينا اجتهد مُعلمي، وأنا في إثرهِ، لنصعد ما لم يصعده الآخرون مِن جبال، ونهبط إلى ما لم يهبطوا إليه من أغوار، ونجوس وسطَ ما لم يجوسوا فيه مِن أحراش وزروع.

فجأة جذبني إلى شَقٍّ بين أخْشَبَين فإذا بنا في مواجهةِ ساحلٍ ممتدٍ وبحرٍ فسيح. وما هي إلا اندفاعة واحدة صوب الماءِ حتى وجدنا الشيخَ المحتضرَ واقفاً هناك فوق الثبج فاتحاً ذراعيه ثابتاً في وجه الريح.. وميتاً.

ثمرات المودة وعقوبة الانفصال

(١)

عندما دخلنا حجرة الدرس كانت مغلقة الشبابيك معتمة، ولَّا كنا فى رائعة النهار والشمس فى الخارج ساطعة فقد سألنا مُعلمنا:

- نفتحُ الشبابيك يا مُعلم؟

قال:

- افتحوا شباكاً واحداً.

فعلنا فسقط من الشباك شعاع مخروطي، عريض، محدد، ونافذ. عندئذ تركَ مُعلمنا موضعه، ووقف على رأس الشعاع وأوقفنا حوله، ففطنا إلى أنه يرغبُ فى تعليمنا شيئاً يتطلبَ الملاحظة والاهتمام، وقد كان.

سألَ وهو يشير إلى السوابح الدقيقة بطيئة الحركة داخل الشعاع:

- ما هذه الأشياء؟

كأطفال الكتاتيب قلنا فى صوت واحد:

- هباءٌ منثور.

سأل:

- فأية تسمية نطلقها على الجسيمات المُشَكِّلة لهذا الهباء؟

أجبنا بنفس الصوت:

- ذرّات.

قال:

- انفخوا فيها:

فنفخنا وأثرنا فى الشعاع زوابع وأعاصير.

سأل:

- ما الذى حدث؟

قلنا:

- تحركتْ فى كلٍّ اتجاه.

قال:

- كذلكَ هو الكون.. كلٌّ متكون من أجزاء، وأجزاءٌ تكونُ كلاً.. وجميع الأجرام تتحرك كهذه الذرات. تحركها قوانين أكثر انضباطاً ودقة من هواء أجوافكم، فمَن يستطيع منكم الخروج على هذه القوانين فليخبرنى وله مباركتى.

(٢)

لمَّا أخذنا مُعلمنا إلى الخلاء، لم نكن نعلم أنه سيضعنا فى قلب الطبيعة الغناء؛ فثمة طرف من نهر، وقشفة من بحر، وفلقة من جبل، وأشجار ومزروعات، وحيوانات وطيور؛ وفوقنا وفوق الكل شمسٌ تغمرنا بالدفء وتشعرنا بالأمان، فطفقنا نشكر مُعلمنا لأنه أتاح لنا أنْ نرفل فى هذا البهاء العظيم، فقال:

- لا تشكرونى، فما قصدتُ إلا أن تتنعموا بثمرات المودة بين أمنا الأرض والشمس جدتنا، فإن يكن ثمة من ضرورة لشكر فليكن لهاتين العظيمتين .. الأم والجدة.

(٣)

فى هدأة من ليل، سبحتْ فى سمائه نجومٌ لوامع، وتهادت فوق أرضه جنادب ودقائق. تأبطنى مُعلمى وقال بصوت جمع بين الحنان والأسى:

- ما أتعسنا يا ولدى.. لو امتلكنا منظاراً يكشف لنا أوصاف هذه النجوم ومجهراً يبين لنا صفات هذه الجنادب لتلنا فى هذه اللحظة قسطاً من السعادة وافراً.

بعدها جلس يتدبر تدبر العلماء فيما هو فى الأعلى وفيما هو فى الأسفل، وجلستُ بدورى أقلِّبْ فكرى فى الكيفية التى نطق بها الكلمة التى نعتنى بها وما توقعتها منه.. «ولدى».

(٤)

استلقى مُعلمى بظهره فوق كثيب اختاره فى الفلاة واستلقيتْ إلى جواره، وعقد ذراعيه خلف رأسه وعقدتهما مثله. نظر إلى الهلال وكان مجرد فتلة من ضوء التوت بالكاد على حافة كرة سوداء لا تبين، ثم قلب بصره فى الكواكب والنجوم المتناثرة فى قبة السماء وتنهد وقال:

اسمع منى فيما ترى مقولة إنْ قال لك غيرى عكسها فقل انتنى ببرهانكَ..

ثم ركن للصمتِ حتى ظننته قد نسى أو فطن إلى أنًّ مداركى تقصر دون فهم ما يروم إسماعى إياه، لكنه بعد ذلك قال وعيناه بين المدارات تسبحان:

ـ الكونُ ضرورة.

وظلَّ على حالهِ وظللتُ.

(٥)

سألتُ مُعلمى:

ـ لماذا كل ما فى الكون من أجرام مُدور يا مُعلم ؟

فغزَّنى بعينيه، كأنما يقول لى «مضى عليكَ زمنٌ طويلٌ لم تذق فيه توبيخى وزجرى» فخزيتُ، إلا أنه بسماحةٍ قال:

ـ تمام الاكتمال فى الدائرة.

(٦)

تحت القبة المرصعة بالنجوم، رأيتُ ومُعلمى ـ ذات ليلةٍ – شهباً ونيازكَ تتوهج بالاشتعال وتمرق مشتعلة، لكنها ما تلبث أن تنطفئ كعود ثقاب قُدِحَ ولمَّا فارت ناره أُلقى به فى مهب الريح.

سألتُ مُعلمي.

- أمن ضعف فى العزم تنطفى، أم من قوة فى الريح؟

أجاب:

- لا ذاكَ ولا تلكَ.

ثم سكتَ كعادته عندما يعطى الإجابات الثقيلة، وبعد هنيهة السكوت قال:

- .. هى عقوبة الانفصال.

فى معية اللازوردى المخاتل

(١)

أجهدتنى الرياضة وأمضتنى حُرقة جوفى فقلتُ لمُعلمى:

ـ فِضْ علىَّ مِن بحركَ فأنا مُقرَّحٌ صاد.

فعنفنى وزجرنى زجراً آلمنى، وطفق يوبخنى حتى أخزانى، ثم قال:

ـ يا أخرق..أما علمتَ بعد أنَّ بحرى بعضٌ مِن فيض متصلٌ بمحيطٍ يملكنى ولا أملكه؟

فعجبتُ كيف جمع بين خِلتى القسوة والتواضع فى آن.

(٢)

جمعنى ومُعلمى قاربٌ فى وسط البحر. وكان يحدثنى عن الطموح والهِمَّةِ والأخذِ بالأسباب. وبينما ظلَّ الملاح الممسك بالدفة والحبل المربوط إلى صارى الشراع يتأملنا ويبتسم ابتسامة من خَبَرَ كُنه ما تكلم به مُعلمى، غزانى شعور بأننى الأكثر جهلاً وسذاجة تحت السماء وفوق الماء، وأحسستُ فى ابتسامته قدراً من شماتة لم أطقه، إلى أنْ سنحت فرصة عندما قال مُعلمى:

ـ طموحٌ بلا همة قاربٌ بلا مجداف.

كان من الممكن تفويت هذه الفرصة لعدم أهميتها، إلا أنَّ تفويتها دون اهتبالها سيؤكد للملاح أننى أكثر الكائنات التى التقاها سذاجة، فتجرأتُ على مُعلمى، ومندفعاً عارضته:

ـ هذا كلام يا مُعلم قديم خَلِق.

ففاجأنى بدفعةٍ قوية أسقطتنى إلى الماء، ورأيته إذ أجاهد الموجَ ينهضُ إلى الملاح ويأمره بإدارة الدفة وتحريك الشراع ويساعده فيما أمر به، فإذا

بالقارب يبتعد وإذا بى فى قلب اللجة وحيداً تتنازعنى الحيرة، أضربُ الماء لألحق به، أم أسبح باتجاه الساحل مغاضباً؟

وإذ استرجع ما قاله لى، أخفى الثبجُ القاربَ والساحلَ، واكتشفتُ أننى مجرد نقطة ضئيلة وحيدة فى خضم هائل من الأزرق العميق، فرحتُ أحرِّكُ أطرافى كلها، وأضربُ بها سطح الماء وأشقه بالاتجاه الذى اختفى فيه القارب طامحاً إلى رؤية ذؤابة شراعه وابتسامة الملاح الشامتة ووجه مُعلمى.

(٣)

اتكأ الصيادُ كثيرُ غضون الوجه كثيفُ خشونة الكف على مجدافه وقال لمُعلمى ولى:

ـ هذا بحر ككل البحور.. محتشد بالمستور والمجهول والمخبوء والمعتم.. كلما طفوتُ فوق ثبجه وشققته باتساع المدى، أوقعتُ فى شباكى صيداً كثيراً، وملأتُ قاربى بما قد يُظن أنه يكفى ويفيض، لكن ما امتلأت لذرارىٍّ أجوافٌ ، وما آن لى، أيها الغريبان، أنْ استريح. وما زال المستور والمجهول والمخبوء والمعتم، هو المستور والمجهول والمخبوء والمعتم. وما زلتُ فوق ثبجه أطفو، واتساع مداه بقاربى أشقه.

عندئذ سأله مُعلمى:

ـ وما هو طلبكَ أيها الصياد ؟

أجاب:

ـ ما مِن طلب يستحق أن يُطلب.

وإذ ننصرف عنه التفتَ إلىَّ مُعلمى وقال:

ـ هذا رجلٌ خَبَرَ البحرَ وعرف سره.

(٤)

عند التقاء النهر بالبحر رأينا رجلاً ذاق ماء النهر فمَجَّه، ثم أخذ يغترف بكفيه من ماء البحر ويشرب، وما لبث أنْ استغنى عن كفيه وأخذ يعبُّ منه بفيه، فأصابني دَهَشٌ شديدٌ لم يصب مُعلمي دهش مثله، فسألتُ الرجلَ:

ـ هذا ماءٌ فراتٌ فلماذا تمجُّه؟.. وذاكَ ملحٌ أجاج فما سر إقبالكَ عليه؟

فحدجني الرجلُ بنظرةٍ من فوق كتفه أظهرتْ لي مدى استحقاره لسؤالي، وعاد يكرع من البحر دون أن يجيب.

أبعدني مُعلمي خطوات عن الرجل وقال لي:

ـ هذا رجلٌ راض نفسه على المخالفة، فماذا لو احتذيته؟

ومع أنَّ ماء البحر فاض لحظتها وارتمى تحت قدميَّ، فإنني رأيتُ أنه من الأجدى تأجيل هذه الرياضة.

(٥)

في مكان من سيف البحر، حيث غطت الرمال أكوام من القواقع والمحارات الميتة، سمعتُ مناجاة مُعلمي للبحر المترجرج فلا هو بالهائج أو المائج ولا هو بالقار أو المسوس، كذلك صوتُ مُعلمي كان رقرقة مفعمة بالأسى، فلا هو بالخافت ولا هو بالمهموس. قال مُعلمي:

ـ أجبني أيها اللازوردي المخاتل، لماذا هجرتَ القواقعَ والمحارات؟.. أمِن غضبٍ منكَ عليها وتقتير، أم هو الفضول أوْهَمَهَا بأنها سترى في جفاف اليابسة ما لم تره في قيعانكَ الرطيبة؟.. أم تراها آثرت، مِن فرط إغارات كواسركَ ولواقطكَ على دروعها ونهشها لحومها، الفرار من حتف إلى حتف؟.. أجبني أيها المتخم ثراءً وغنى.. أجبني أيها البَطِن ولا تستهزئ بي أو تطيل انتظاري.. أجبني أيها المخاتل، وقل لي أيكما نبذ الآخر.

وما أسرع ما أتته الإجابة، فقد مدَّ البحرُ موجة متحدية رَمَتْ بامتداد الساحل أعداداً هائلة مِن القواقع والمحارات، فأخذتْ تتقلقل بين الزبد

والرغام تقلقل القرابين الحَيَّة على المذابح الوثنية، ثم ما لبثَ معظمها أنْ استكن وقر وفتح مصاريعَه لتحتضن طعنات الشمس القاتلة الاحتضان الأخير وتموت.

مِن فوره غزا الانبهار ملامح مُعلمي فأخذ يجيل بصره المتحير ويقلبه في صفوف الصرعى الجدد. وفي حين سحب البحرُ موجته وعاد إلى ترجرجه غير الهائج أو المائج ولا القار أو المسوس، كانت الطيور قد أخذت تحوِّم فوق رأس مُعلمي، وفرادى وزرافات بدأت تهبط لتلتقط بطول الساحل لحوم القواقع والمحارات الميتة لتوها باطمئنان بالغ.

(٦)

ما عدتُ قادراً على تخيل أنَّ في الكون رهافة تفوق رهافة الامتزاج بين الضياء والماء بالصورة التي تشربته خلاياي ليلتها. كنتُ ومُعلمي في البحر، ولم يكن القمر وقتها بالداني ولا بالبعيد، ورمل الساحل ما كان بالقصي ولا بالقريب، والصمتُ نصب خيمة خالية من الثقوب، والطيور توارت، والأسماك لاذت بالقاع السحيق، لينتصب أمامنا جسدان ملتحمان في المطلق، كتلتان من الأثير على هيئتي امرأة ورجل، رجل وامرأة، اثنان متماهيان في الضوء والماء ، أطرهما الضوء ورقرقهما الماء وغلفهما الأثير. نحن في قاربنا نحيط بأبعاده ونتلمس دسرَه وقاره، لكن أي جسم عائم ذلك الذي يحملهما ؟ .. لا يمكن أن يكونا محمولان على خشب أو مطاط أو حديد ؟ .. لعله فيض الأثير المغلف لهما انفرش بساطاً خفياً تحتهما، ولعلها كرامة تماثل كرامات مُعلمي. فوق الماء القمري تداخلا، نفس في نفس، ضوء في ضوء، وبهاء في بهاء. تبادلنا أنا ومُعلمي النظرات وخشينا أنْ تحدث حركتا رأسينا صوتاً يخدش قدسية ما نرى، وخشينا أنْ تحرك أنفاسنا هدب الضوء الذي يؤطرهما ويشعانه، وخشينا أنْ يفضحنا القمر، فانصرفنا إلى صفحة الماء

نمسح عليها كانما نرجوها أنْ تدفع قاربنا إلى بعيد البعيد. دون خرير أو صوت، لنتيح الخلوة كاملة لالتحام الوضاءة بالوضاءة، والرهافة بالرهافة. وكان جميلاً من مُعلمى أنه لم يعقب على ما عشناه ورأيناه رأى العين، حتى بعد أنْ انتهينا إلى المرسى وغادرنا البحر، فما زال المشهد ـ بطزاجته وقدسيته ـ ماثلاً فى خلاياى كما هو.. آثيرياً، وضاءً، ورهيفاً.

(٧)

حال هياج البحر دون ركوبنا له، فالمراكب لم تأت إلى المرسى، ولا حتى القوارب.

قلتُ لمُعلمى:

ـ لا أعرف يا مُعلم لأى غرض جئتَ بى إلى هنا، لكن بما أننا نقف أمام مرسى، فلعلكَ كنت تبغى الارتحال عبر البحر إلى جزيرة أو أرض تقع فى مكان ما من الشاطئ الآخر، فلماذا تؤخر نفسكَ وتؤخرنى؟.. سابقوكَ أتوا بأفعال خوارق لمَّا هاجت بحورهم ربما بأعلى أو بأدنى مما يهيج هذا البحر، فاتْ يا مُعلمى بما يطوع هذا الهائج حتى لا تتعطل عن بلوغ مرامك.

عندئذ نظر إلىّ وسأل:

ـ أو تصدق ما قيل عن خوارق هؤلاء السابقين ؟

قلتُ:

ـ ما كنتُ لأصدق لولا أننى رأيتكَ بنفسى تأتيها.. رأيتكَ تمشى فوق الماء، وتتسلق شعاع الضوء، وركبتَ الأسدَ وأركبتنى.. أنا رأيتكَ.. بعينى رأيتكَ .. أنا لا أكذِّبُ عينىَّ فقد رأيتكَ..

وطفقتُ أؤكد على مرآى لكراماته، لكنه أسكتنى بإشارة من يده وقال:

ـ لا تقل «رأيتُ» . قل «تراءى لى» .

فخاب ظنى، وظللنا فوق حافة المرسى يوماً وبعض يوم حتى هدأ البحر وجاءت المراكب فركبنا واحدة منها مع الراكبين، وظللت طوال الرحلة مطرق الرأس مُكدَّراً، غيرَ مصدق أنَّ كل ما شاهدته من كرامات مُعلمى كان وهماً.

زيوت المسارج وفتائلها

(١)

بدون مناسبة قال لى مُعلمى:

- لا تربو معرفة إلا بمعرفةٍ، ولا تُفضى معرفة إلا إلى معرفةٍ، ولا تنقضى معرفةٌ إلا من معرفة.

(٢)

تصادف أن دخلنا محفلاً يكتظ بالعلماء والمتخصصين. واستمعنا إلى عالمين تحدثا بما لم يصلنا منه أى فهم. بعد أن انتهيا واجها نقاشاً، فقال الأول:

- ما قلته هو الصواب.

وقال الثانى:

- ما لم أقله هو الباطل.

دنا مُعلمى من منصتيهما وسأل الأول:

- لماذا ما قلته هو الصواب؟

أجاب:

- لأننى قلته.

وسأل الثانى:

- لماذا ما لم تقله هو الباطل؟

أجاب:

- لأننى لم أقله.

فالتفتَ مُعلمى إلى الحضور، وأنا منهم، ثم أشار باتجاه المنصة وقال:

ـ أفٍ لكل مغرور بعلمه، متطلسم، ومتعال .

بعدها خطب فقال:

ـ لن ينصلح لكم حال من غير أن تحسنوا تخير من تقدمونهم من علمائكم.

وأومأ لي فتبعته وهو ينصرف.

(٣)

طفقنا أنا وأحد التلاميذ نتباهى، كُلُّ بملَكاته، وكنا قد اتفقنا على أن نظل كذلك إلى أن يعترف أحدنا للآخر بأنه الأفضل. ولما كنتُ متمكناً من فنون القول فقد أفحمتُه بفصاحة لساني وبلاغة خطابي. وإذ أصعًر له خدي، أمسكَ بلوح، وخط عليه عدداً من المسائل الحسابية المعقدة، وأسرع بتدوين حلولها ، ثم وضع اللوحَ أمام عينيّ.

خامرني شك وظننته يبغي إيهامي بما ليس فيه، لكنه كي يبدد شكوكي سألني أن أُملي عليه ما أشاء من مسائل ففعلتُ . أمليتُ عليه مسائل من عشرين رقماً ضرباً وطرحاً وقسمة وطلبتُ جذراً تربيعياً وآخر تكعيبياً، وأعطيته معادلات من الدرجة الثانية، أعترفُ بأنني لا أعرف لها حلاً، لكنه حلها وأتى بالأرقام المجهولة كما لو كان هو واضع هذه المعادلات.

بعد أن فعل واجهني بابتسامة عريضة ثم قال:

ـ أما آن أن تعترف بأنني الأفضل؟

فاستكبرتُ وقلتُ:

ـ لا.. فأنا الأفضل.

إذ ذاك دخل علينا مُعلمنا. تفرسنا ثم سأل:

ـ ما بكما؟

دونما ارتباك بادلته سؤالاً بسؤال:

- أيهما أفضل يا مُعلم.. البلاغة أم الحساب ؟

وأمَّنَ منافسى على سؤالى وأكده:

- نعم يا مُعلم.. أيهما أفضل.. الحساب أم البلاغة؟

فابتسم حتى بانت نواجذه، وأخذنا تحت إبطيه ومشى بنا ثم أوقفنا باتجاه الفلاة وقال:

- سأجيبكما بقول قرأته ولم أقله.

انتعشت واسترقت النظر إلى منافسى، فمُعلمى فصيحٌ وبليغٌ وقراءاته تدعم فصاحته وبلاغته، ومن ثم سينتصر لى فتنفثئ فقاعة غرور الزميل المعاند، غير أن مُعلمى لطمنى اللطمة التى لا راد لها. قال:

- الحساب جد والبلاغة هزل.

تبدلتُ من حال إلى حال، فأعقبَ:

- الحساب موصول بغاية، أما البلاغة فزخرفٌ وحِلية. الحساب شبيهُ بالماء، أما البلاغة فشبيهة بالسراب. ولئن اكتفت الأمة ببليغ واحدٍ فلا يكفها مائة محاسب.

تشجعتُ فقلت:

- هذا عما قرأتَ يا مُعلم، فماذا ترى أنتَ؟

لم يجبنى مباشرة، وإنما حرَّكَ باصريه بيننا قبل أن يسلطهما علىّ. شعرتُ بثقل ما سيقول، وقد كان. قال بشفتين زمهما الحزم:

- أرى أن تتعلم الحساب من زميلك حتى تجيده.

(٤)

قال مُعلمى، لى ولمن التقاهم من التلاميذ، فى غير موضع:

- لا علم بإلهام.. ولا كشف بتوهم.

وقال:

- العلمُ مَطالبُ تأتلف.. وغيرهُ مشاربُ تختلف.

وقال:

ـ العلم خدينٌ، فإنْ نصرتموه نصرَكم، وإنْ خذلتموه خذلكم.

ثم جمعنا ذات مرة وقادنا إلى مختبر الكيمياء وقال للواقف بين القوارير والآنابيب والسوائل والأبخرة:

ـ علمهم أصول الحرقة.

(٥)

ذات درسْ كرر مُعلمي الحديث عن الكشف حتى ظننتُ أنْ لا شيء يشغله في عالمنا سواه، فانبريتُ واقفاً وأنا آخشى أن يسمَني بالشرود وسألته:

ـ وما الكشف يا مُعلم؟

على عكس ما ظننتُ أجابني كما لو كان بإجابته يختتم الدرس:

ـ الكشف هو معرفة ما تغيبه الألفة، وعلم ما تخفيه العادة.

(٦)

دخلنا حجرة الدرس فإذا بمعلمنا قد سبقنا واتخذ مجلسه المعتاد وأمامه مسرجة يوليها عنايته ويضعها موضع اهتمامه، فعلمنا أن درسَنا موصول بهذه المسرجة، فتأهبنا لها وسلطنا عليها أنظارنا، وعندما اكتمل عددنا وهدأ ضجيجنا شرع مُعلمنا يقول:

ـ ما أكثر ما رمز القدماء للعلم بالمسرجة، لأنها تضيء مثلما العلم يضيء، لكن ما بال هذه لا تضيء؟

مِن فوره انبرى بعضنا وقال:

ـ لأنها خالية مِن الزيت..

وأكمل البعض:

ـ .. ولا فتيل بها.

فأخرجَ مِن وراءِ ظهره قنينة زيت وفتيلاً، وصَبَّ الزيتَ في المسرجة حتى امتلأت، ثم غمس الفتيل فيه وعُنِيَ بتشذيب طرفه وإظهاره، وبعدها قال:

ـ ملأناها بالزيتِ وزودناها بالفتيل، ومع هذا لا تضىء.

فندمنا على النقص فى إجابتنا وسارعنا إلى التعويض:

ـ بقى اللهب.

فتلقف الكلمة كما لو كان ينتظرها، ثم كورها وردها إلينا حمراء لاسعة:

ـ اللهب.. إنه اللهب.. اللهب هو ما ينقصها.

وبعد صمتٍ كوى فيه اللهب جلودنا، قال:

ـ ما أكثر هياكل المسارج، وما أوفر الزيوت، وما أيسر الحصول على الفتائل، لكن مع هذه الكثرة والوفرة واليسر لا يتحقق الضوء بغير اللهب..

ثم سأل سؤالاً بدا غاية فى البساطة والسذاجة:

ـ .. فمن أين نحصل على اللهب؟

الأغبياء منا تورطوا فتباروا:

ـ مِن القدّاحة..

ـ .. مِن أعواد الثقاب..

ـ .. مِن ضربِ حجرٍ بحجرٍ والنفخ فى الشرر.

فأسكتهم ناهراً إياهم:

ـ خسئتم.. أهكذا يفكر تلاميذى؟ ..

فانتعشنا نحن الذين أبطأنا فى الإجابة ولم تغرنا بساطة السؤال، ثم أظهرنا سيمياء التباهى على مَن انكشف غباؤهم، وقلنا:

ـ البشر هم مصدر اللهب..

ـ .. الإنسان هو مصدر اللهب..

ـ .. نحن مصدر اللهب.

لكنه فشَّ مخزون الفرح الذى كنا قد هيأنا أنفسنا لإطلاقه فى وجوه المتعجلين، لمَّا نظر إلينا نظرة مَن خاب جانب مِن أمله فينا نحن أيضاً، وهز رأسه هزة أسى، وقال:

- اقتربتم وبعدتم.

وانتظر إجابة منا لم تصله، فقال بانفعال:

- اللهب لا يقدمه غير المبدعين.. منكم.. من البشر.. الإنسان المبدع هو مصدر اللهب.. يا لفجيعتى فيكم.. زرعتُ وما مِن ثمر.. غرستُ وما حصدتُ.. يا أيها البُلداء .. اكتووا بغضبى حتى تعلموا أنْ لا علم بدون إبدا ع.. لا علم بدون إبدا ع .. لا علم بدون إبدا ع.

وظل يرددها ونحن مسمرون أمامه، يحزننا أننا أغضبناه، ونفكر فى الاجتهاد كيما نرضيه ويرضى عنا، ونود أن نفر من أمامه ولا نقدر.

(٧)

ضَمَّنى ومُعلمى جَمْعٌ يتوسطه رجلٌ مزهوٌ بنفسه ومعارفه وعلومه. وكان بالفعل مبهراً بما يقول، ففى أوجز وقت تحدث فى الكيمياء الحيوية والهندسة الوراثية والجينوم والفيمتوثانية، وما توقف عند هذا، فقد حل عدداً من المعضلات المرتبطة بفقه اللغة وعلم الصوتيات وأساليب تشغيل تقنيات الاتصال الشفرى، وقدَّم - أيضاً - شروحاً لأحدث المصطلحات فى مجالات علوم الإدارة والمحاسبة والعلاقات العامة.

فلمَّا قال الجمع لنتحول إلى قضايا الساعة سرد بنفس الزهو آراءه فى مشكلات السياسة والاقتصاد والبيئة والتنظيم الاجتماعى كما نعيشها الآن.

حاولتُ استرجاع الأحكام التى قررها وبَتَّ فيها، دون أنْ يتيح لنا فرصة مراجعة ما نعرفه منها أو تمحيصه، ففشلتُ لكثرتها الكاثرة، وإذ أضربُ أخماساً فى أسداس تقدم مُعلمى وأتى بما لم أتوقعه منه.. لا أنا، ولا أحدُ من أفراد الجَمع المحيط.. فقد مدَّ يده وانتزع شعرة برزت من إحدى فتحتى أنف الرجل المتعالم ثم شَهَرَهَا فى وجهه وقال: أيهذا المزهو بنفسه، يا من لا تترك لنا فسحة من وقت لاختبار صدق ما تقول، أخبرنا عن مقدار النقص الذى اعترى وزن بدنكَ من جراء انتزاع هذه الشعرة منه.

فبهتَ الرجلُ.

(٨)

باتجاه المرج سرنا وحثثنا الخطو بحثاً عن خميلةٍ تصلح كيما نجلس في فيئها ، ليقرئني مُعلمي كتباً قال إنَّ فيها مِن جوامع للكلم ما ينبغي عليَّ أنْ أعيه وأفيد منه.

ولَمَّا كانت الكتب تثقل ساعدي فقد استثقلتُ حملَها وطولَ المسير بها، وحادثتني نفسي بالجلوس على نجيل الأرض، فرحمني مُعلمي وجلسَ فجلستُ.

ما إنْ فتَحَ أولَ كتاب حتى رأينا أمامنا حشداً مِن السُكارى لا أول لهم ولا آخر يمسكون بكؤوس وقوارير ودِنان يجرعون ما بها مِن خمر ويترنحون، ورأينا بينهم أحواضاً نقَّالة وبراميلَ يغترفون منها ما يعوض المندلق في أجوافهم، وفي الأحواض والبراميل مَن غطسَ وسبحَ وقد ذهبَ عقله وتجرَّدَ مِن وقاره.

بهتُّ، فلو كان هذا الحشد موجوداً قبل جلوسنا لتبينته.

وإذ أنظر إليهم نظرةَ العاجز عن الإحاطة بجمعهم الذي لا نهاية له سمعتُ ممن هم أقرب إلينا كلاماً تُحركه ألسنتهم الملويَّة ، وتُغرقه خمرُهم المصبوبة.

بالكاد فهمتُ منهم جملةً معناها أنْ «انهضا وتقدما يا مجهولي الهُوِيَّة» فنهضنا وتقدمنا ودخلنا بينهم.

بأريحيةٍ مَن مزَّقت الخمر أزمَّتَهم أدنوا حوافَ الكؤوس وفوهات القوارير وصنابير الدنان مِن فاهينا، فتذوقنا وشربنا وجرعنا خمراً هي اللذة سائلة، فثملتُ وثملَ مُعلمي، إلا أن مُعلمي فاقني فيما جَرَعَ ، حتى أنه سكبَ البرميلَ تلو البرميل فوق رأسه، وبخرقته أخذ يثب مِن حَوض إلى حَوض، وفي كلِّ حَوض راح يغطس ويقب ويعوم، ويغطس ويقب ويعوم،

والسكارى من حولنا يهللون ويتطوحون، ولولا فقهة أصابتنى لعادلته شرباً وثمالة.

لمَّا استشعرنا الفواق كنا وحدنا فوق نجيل الأرض، وكانت الكتب المقفولة لا تزال مقفولة، أما الكتاب المفتوح فكانت تفوح منه رائحة الخمر.

هاء مُعلمى للحديث، غير أنَّ حارسَ المرج دهمنا وصاح:

- ضجيجكما فاق كلَّ حد.

ولمَّا داعبتْ خياشيمَه رائحةُ الكتاب زعقَ مستنكراً:

- ما هذا؟!.. خمر؟!

ثم أمرنا بحمل الكتب فحملتُها، واقتادنا إلى المخفر.

(٩)

فى مكتبة العلوم العامة رأيتُ مُعلمى داخلاً فنهضت إليه أستقبله.

سألته:

- تريدنى فى أمر يا مُعلم ؟

قال:

- لو أردتكَ لطلبتكَ.

ففهمتُ أنه إنما جاء ليتابعنى، وليطمئن إلى امتثالى لتوجيهه إياى بارتياد هذه المكتبة.

فى وقفتنا، وبخرقتينا، بدونا كائنين غريبين عن القلائل المتحركين والجالسين بين الأرفف وإلى الطاولات المحيطة. وبينما كنت أفكر فى دعوته إلى الجلوس اتقاءً لأعين الناظرين، لمحتُ منه نظرة، لا أدرى تعمدها أم جاءت منه عفو الخاطر، إلى كتب العقائد المفتوحة لا تزال فوق الطاولة التى كنتُ أجلس إليها. تأهبتُ للرد على ما قد يطرحه على من أسئلة عن أسباب اختيارى لها من بين آلاف الكتب المحيطة، أو عن مؤلفيها وموادها أو عن

نوعية الإجابات التى سعيتُ للحصول عليها منها، لكنه هز رأسه هزة العارف. والتفت إلى الأرفف التى نقف قبالتها، وتفرس فى كعوب الكتب المرصوصة فوقها هنيهة، ثم باغتنى وهو يشير إلى الكتب المطروحة على الطاولة:

ـ ماذا وجدت فيها؟

أجبتُ:

ـ الحيرة يا مُعلِّم.

باقتضاب قال:

ـ صدقتَ.

ثملتُ ودارت رأسى تيهاً، فعلى مدى متابعتى له ومرافقتى إياه لا أذكر أنه صدَّق مرة بمثل هذا الحسم على قول قلته.

سألنى:

ـ أتدرى ما السبب؟..

وإذ أجتهد لتثبيت رأسى بادرنى بالإجابة، كما لو كان لم يُلق بسؤاله إلا ليجيب عليه:

ـ .. لأن مؤلفى كتب العقائد لم يبحثوا فيها عما ينبغى ـ أو لا ينبغى ـ اعتقاده، وإنما عما يعتقدونه هم، وعن سلطان أفكارهم هم، فشاهت الجواهر، وساءت التأويلات، وأغار بعضهم على أفكار بعض.

نظرت إلى الكتب التى حيرتنى موادها قبل إجابة مُعلمى، وبينما أخذتُ أغلقها، الكتاب تلو الكتاب، سمعتُ مُعلمى يقول:

ـ ما أسعده من لا يشارك فى ترويج هذه الضلالات.

(١٠)

لمَّا تحرك مُعلمى ظننته سيخرج من المكتبة فتبعته، لكنه اتجه إلى أمينها الكَيِّس وسأله شيئاً فنهض من مكانه وأخذ يبحث فى عدد من الأرفف، ثم

جاءه بكراسة صغيرة تبدو غير ذات أهمية. فعل هذا دون أن يحدجنا، لا في غدوه ولا في رواحه، بنظرة من تلك النظرات التي أغرقنا بها من مررنا بهم أو مروا بنا، ربما لأنه عرف مدلول الخرقتين اللتين نرتديهما، وربما لأنه ملَّ من تأملنا منذ دخلنا مكتبته.

قلّب مُعلمي صفحات الكراسة وتفرس في أسطرها ببطء أتاح لي فرصة قراءة ما فيها، لكنني لم أظفر من قراءتي بشيء ذي بال. كانت مجرد أسماء لأشخاص لا أعرفهم، وما كنتُ لأسعى إلى معرفتهم، فاندهشت لاهتمام مُعلمي وعدم القفز بإصبعه من فوق أي اسم وإنْ بهت حبره. لكن دهشتي مالبثت أن تبددتْ لمَّا أنهى صفحات الكراسة، ثم سهم ببصره في اللاشيء، وسأل مخاطباً نفسه بصوت مفعم بالحسرة والمرارة:

ـ أين النساء من علمائنا؟

تبادلتُ وأمين المكتبة النظرات لهنيهة وَزَنَ خلالها مُعلمي الكراسة الضئيلة بكفه وأردف بذات الحسرة والمرارة:

ـ .. بل أين علماؤنا؟

عندئذ رد أمين المكتبة بأدب جم:

ـ للأسف هذه هي الكراسة الوحيدة لدينا.

(١١)

في البقعة المختارة من الخلاء المحيط بالمدينة وقف المهندسون والمقاولون والعمال وتوقفت عجلات المركبات والكراكات ومعدات الحفر والخلط وأفران إذابة القار.

كان مُعلمي يقف حيث يقفون وكنت أقف معه.

أمر المهندسون فرْشَ مسحوق الجير في خطوط كونت مربعات ومستطيلات ودوائر أبانت حدود المصنع الذي يزمعون إنشاءه، وأماكن

ومساحات وحداته، وإذ يعطي كبيرهم إشارة البدء ويهم العمال بالتنفيذ أتى مُعلمي بإشارة اعتراض وواجه الجميع وإنْ خص كبيرهم بالحديث:

- ما تفعلونه يا كبير المهندسين غير سليم.

أتى كبير المهندسين بتلويحة استهانة وإزاحة في وجه مُعلمي وانصرف عنه وتبعه الآخرون، إلا أن مُعلمي انتصب في مكانه وقال بالحزم الذي اعتدته منه، وبجهارة صوت لا تقاوم:

- قلتُ يا كبير المهندسين إنَّ ما تفعلونه غير سليم.

عندئذ استدار إليه كبير المهندسين وسائر من في الموقع. وما لبث أن رذد كبير المهندسين ومن معه كلاماً تناثر واندغم وتراكب وتداخل، ولا أزعم أنني قد فهمتُ منه شيئاً ذا بال. قالوا كلاماً كثيراً في الجيولوجيا، التكنولوجيا، الهيدروليكا، الهندسة الميكانيكية، الهندسة البنائية، والديناميكا الطبيعية: وقال مُعلمي نفس الكلام لكن بطريقة بدت لي مغرقة في المعارضة؛ وأزاد عليه ما فهمته حق الفهم عن انحرافات الزوايا، حركة الريح، المياه الجوفية، التنوع الحيوي، البيئة، المباني السكنية، الصحة، وسعادة البشر. وبعد أن أفاض دون أنْ تصيبه كلالة قال:

- ومستعد لأن أثبت لكم سلامة ما أقول بالدليل والبرهان.

عندئذ أمر كبير المهندسين فجيء لمُعلمي بلوحات من ورق وأقلام ومسطرة وفرجار ومثلث وما لا أعرفه من الأدوات، فطفق مُعلمي يضع خطوطاً ويرسم منحنيات ويغلق دوائر ويدون معادلات و رموزاً إلى أن انتهى، وأنا وكل من يحيط به في حالة انبهار وشُدْه مما يأتيه ويفعله هذا البسيط مرتدي الخرقة. أفقتُ على نقاش دار هذه المرة بهدوء واحترام جمَّين بين كبير المهندسين وعدد من أتباعه من ناحية، ومُعلمي وحده من ناحية أخرى. بعدها أمر كبير المهندسين فطمرت الخطوط الجيرية التي سبق رشها، وبإشراف شخصي منه، وفي نفس الموقع، تم رش خطوط أخرى

بزوايا وأبعاد ومساحات جديدة، هى الزوايا والأبعاد والمساحات التى قال بها مُعلمى.

ولما بدأت المعدات فى الهدير قال كبير المهندسين لمُعلمي، بصوت فيه كثير من الامتنان:

ـ تصويباتك أنقذت سكان المدينة من أضرار ما لها من حدود.. قمين بهم أن يشكرونك بما أنتَ أهلٌ له.

لكن ما مِن أحد مِن سكان المدينة جاءه شاكراً، وما كان مُعلمى لينتظر شكراً أو يأبه له.

(١٢)

وقف فينا مُعلمنا محاضراً وقال:

ـ ليس من رام التماسَ مع المعرفة كمَن حصَّلَ منها قسطاً، وليست المعرفة كالعلم، وليس من فهم العلم كمن فهم العلم وأحبه، وليس من فهم العلم وأحبه كمن فهم العلم وأحبه وأخلص له. الفهم بذل، والحب عطاء، وفى الإخلاص مشقة: فلا يطمعن من بذل للعلم وأعطاه وشقى مَن أجله فى أن يقول الناس عنه هذا عالم، لأن الصفة تكون قد وجبت له.

(١٣)

بهرنى جمال الفراشات على ضفة النهر وأدهشتنى ألوانها واستهوتنى هيئاتها فأتيتُ بما أعاننى على جمع ما جمعته منها لأتفحصه حتى أعلم بعضاً من أسرار هاتيك المخلوقات البديعة فى هشاشتها، لكن اعترضنى مجترئ واختطفَ صندوقها منى، فلما أمسكتُ به أنكرنى واستصرخ الناس وزعم أننى أطارده لأسلبه صندوق فراشاته، كذبته فانتصر له الناس وأنونى وتركوه يمضى.

شكوتُ لمُعلمى هوان أمرى، وقلتُ كلاماً كثيراً عن العلم والعدل والصفاء العكر والكمال المنقوص، فابتسم وربَّتَ علىَّ مواسياً:

- طيبٌ منكَ أنْ تطلبَ الصافي الخالص علماً وعدلاً، لكن اعلم أنه ما من علم أو عدل لم تصبه من أدران النقص شوائب، فالعلم شائبته الجهل، أفما علمتَ؟ .. والعدل شائبته الظلم، أفما دريتَ ؟

(١٤)

بحنو بالغ أخذ مُعلمي يواسيني لمَّا رآني حزيناً موزع النفس بين رغبتي في القبض على أزِمَّةِ العلم وحسرتي لقلة حصيلتي منه، فلمَّا تساءلتُ عن الجدوى، ورميتُ الحياةَ بالخواء، وشكوتُ له ضحالتها وفقرها، وضع كفه على فمي واسكتني:

- لا .. لا تَرْمِ الحياةَ بالخواء. لا تقلْ كم هي ضحلة وفقيرة هذه التي أطلبُ منها فلا تعطيني. قَوِيَ خيالكَ أو وَهَنَ، وشَحُذتْ همتكَ أو ثلمتْ، فلن تقدر على مس طرفِ أدق هُدْبَةٍ من أهْدَابِها إلا بمشقة.

ثم أمسك بيدي وأوصلني إلى الباب وبهدوء أمرني:

- أخرج واسع وراء الأصم والأعمى والأعضب. امض إلى الأكمه والأبرص، وسلهم عما يرومونه منها، وما يرونه فيها، وما يتخيلونه عنها: ومما يجيبونك به. تعلم ثم إليَّ تعال.

(١٥)

جرؤت على مُعلمي فحثثتُ الخطو حتى أصبحتُ أمامه واستوقفته بالسؤال الذي أرَّقني طويلاً:

- عمن أخذتَ علومكَ يا مُعلم ؟

لم يرد. فقط نظر إلى نظرة المشفق وهم بالتحرك، لكنني من فرط الحمى التي تستبد بي تقدمت باتجاهه خطوة فتوقف. قلتُ:

- لا تقل إنه شيخك.. هو دلكَ على المسلك وأرشدكَ إلى الطريقة.. أما ما تملكه من ذخائر العلوم ونفيس المعارف فاهجس بأنكَ قد تلقيته عن غيره.

نظر إلىَّ ولم يُعقب، لكننى استشففتُ أن فى بعض مما قلته اقتراباً مما لم يجبنى به. أعدتْ عليه سؤالى:

- عمن أخذت علومك يا مُعلم ؟

سأل:

- أى شىء ستفيده إنْ عرفتَ ؟

قلتُ :

- ينطفئ الأوار المستعر بداخلى.

ببطء نطق بما ظننته الإجابة المرتجاة، لكنه قال:

- خمن.

انبريتُ بما اعتقدته وتوقعتُ أن ينطق به، لكنه أخفاه ليمتحننى:

- الخضر .. الخضر هو من علمكَ يا مُعلمى.

مدَّ ذراعيه حتى مَسَّ منكبىَّ وسأل:

- لماذا تقطع بأنه الخضر؟

أجبته:

- لا يمكن إلا أن يكون الخضر.. الخضر بالتأكيد هو من علمكَ.

عدم تأكيده إجابتى أقلقنى. أقلقنى أكثر استمراره فى سؤالى. سأل:

- لماذا أنتَ متأكد هكذا ؟

قلتْ وقد بدأتُ أتوجس:

- لا يمكن إلا أن يكون الخضر. مُعلمون كثيرون دونك يقولون لتلاميذهم إنهم يتلقون علومهم عن الخضر. بل ريقى يا مُعلم وقل إنَّ الخضر هو مُعلمكَ فأنت الأكثر علماً والأعظم شأناً بينهم. قل إنه يخصك بأخص علومه حتى يعلم الكافة تفضيله إياك فيقرون بفضلك عليهم.

عند هذا الحد شرع مُعلمى كفاً فاسكتنى ليقول:

- ما جاءني الخضر يوماً. وما أخذتُ عنه أو عمن يحكون عنه علماً أو كلمة أو حتى حرفاً.

صُدمتُ وعدتُ إلى حيث بدأتُ، لكنه سارع وقال مهدئاً من روعي:

- أطفئ لواسع نارك بما سأقوله لكَ. ما من علم حصلّته، وعلمتكَ وغيرك إياه، إلا من الطبيعة جاء، ومن مراقبة البشر أتي.

ثم مدَّ كفاً داعبَ بها شعر رأسي وأخرى ربَّتَ بها على كتفي وقال:

- افرح ولا تبتئس.

ومازال يداعب شعر رأسي ويُربِّتُ على كتفي حتى انطفأ السعير بداخلي واطمأننتُ.

(١٦)

في موقع الإعجاب قلتُ لمُعلمي:

- ما من شيء إلا تعلمه يا معُلم.. أنتَ العالِم وما بعدكَ مِن عالِم.

فغضبَ حتى احمرَّتْ عيناه وبادرني بسيل من الكلمات القاسية:

- صه يا غبي.. إنكَ لتهفو إلى الزجر والتعنيف كما يهفو النبات الطري إلى عفن السماد. وفمكَ هذا لا يخرج كلاماً وإنما يقذف بعراً. يا غبي.. أدرك أنه ما دمتُ أجهلُ كنه الحياة فما أنا بعالم.

وتركني ومضى فهرولتُ خلفه أستعطفه.

(١٧)

في هدأة من ليل، سبحتْ في سمائه نجوم لوامع، وتهادت فوق أرضه جنادب ودقائق، تأبطني معُلمي وقال بصوت جمع بين الحنان والأسى:

- ما أتعسنا يا ولدي.. لو امتلكنا منظاراً يكشف لنا أوصاف هذه النجوم ومجهراً يبين لنا صفات هذه الجنادب لنلنا في هذه اللحظة قسطاً من السعادة وافراً.

بعدها جلس يتدبر تدبر العلماء فيما هو فى الأعلى وفيما هو فى الأسفل، وجلستُ بدوري أقلّبُ فكرى فى الكيفية التى نطق بها الكلمة التى نعتنى بها وما توقعتها منه.. «ولدى» .

(١٨)

لم يكن لدى مُعلمي ميل إلى مشاهدة التلفاز فالحاكم يحتل صفحته طول الوقت، وكلما ظهر نطق بكلام كبير يقول المحللون إنه مفيد للأمة ولا يبينون كيف. فى هذه المرة فرضت علينا واجهات المتاجر مشاهدة وجهه وقد انطبع على الصفحات اللامعة الموزعة بأرجاء الطريق. إلى جواره بدا وجه قائد الجند كبيراً، بينما تصاغرت وجوه الكبار في الخلف.

على غير المعتاد منه توقف مُعلمى واقترب من واجهة متجر وراح يحدق في صورة الحاكم ومن يجاوره والمصطفين فى الخلف، ثم أشار إلى أربعة وجوه غاية فى التضاؤل، على تواريها بين زحام الوجوه الضئيلة انبسطت أساريرها بابتسامات بدت لى بلهاء لا مبرر أو ضرورة لها.

سألنى مُعلمى:

- أتعرف وجوه من هذه ؟

قلتُ:

- أعرف.

وبالفعل كنتُ أعرف. ومَن في طول البلاد وعرضها لا يعرف وجوه الرجال الأشهر فى ميادين العلم والدين والفلسفة والفن؟

عندئذ قال:

- خذها عنى أو لا تأخذها.. إن أراذل الناس من يبيعون معتقداتهم بثمن بخس.

(١٩)

علمنا أن مُعلمنا داخل حجرة الدرس فدهمنا خزى كبير.. ينتظرنا

مُعلِّمنا ونحن نتلهى عنه بسفاسف الأمور؟!.. تدافعنا لنلتقيه فإذا به فى حال جمدتنا ولمَّا نكد نخطو باتجاه مجالسنا سوى بضع خطوات، فقد كان جاثياً ينوح ويجأر وتفور عيناه بالدمع الهتون:

ـ أى شر؟.. أى عار؟..

لم أعهده، لا أنا ولا زملاء الدرس، على هذه الحال.

كان جسمه ينتفض كما لو أن سياطاً تهوى على ظهره. مع كل انتفاضة كان يجأر:

ـ أى شر؟.. أى عار؟..

انكفأتُ عليه محتضناً ومقبِّلاً، واجتهدتُ ـ واجتهد التلاميذ معى ـ لأن نقيله من جثوه.

بعد لأى أنهضناه، وفوق كرسى الدرس أجلسناه، وإذ ننهمك فى تجفيف دموعه وتدليك صدره وكفيه وقدميه، لمحتُ حيث كان جاثياً جريدة مزدحمة بصور الدمار المريع الذى أصاب به الغزاة شعباً شقيقاً، ففهمتُ سبب حاله وأدركتُ ـ من طول ملازمتى له ـ أن كلامه وهو فى هذه الحال سينفعنا نفعاً عظيماً، فجلست قبالته وناشدته:

ـ يا ذا القلب الرحيم والعقل الراجح، أخبرنا.. فديتك.. بما يحز نياط قلبكَ ويدميكَ.

بعد مجاهدة منه امتد أمدها وطال، اتخذ سمت المُعلم وقال:

ـ ما فتئتُ يا أحبائى أحضكم على مخادنة العلم وارتفاقه. وأسقيتكم حبه بملاعق ما كللتُ من دلق ما فيها إلى أجوافكم. وقلتُ لكم بكم العلم يربو وبه تنتفعون..

ثم تهدج صوته:

ـ .. لكننى أقول لكم الآن معترفاً، أنا كاذب، لئيم ومخادع، أنا أفاق. انظروا ما فعله العلم بمن خادنوه، أو فعلوا هم به لمَّا امتلكوا ناصيته..

وكان قد مد إصبعاً مرتعشة صوب الجريدة فاتجهت رؤوسنا صوبها بالتفاتة لها حفيف، واستمعنا إلى صوته المرتجف وأعيننا تتفحص الصور المرعبة. لم يكن يُعلمنا. كان يخطب فينا:

- .. انظروا ماذا فعل العلم بأشقائكم، بالكون، بسائر البشر..

وبنبرة استعطاف لم نعهدها منه أبداً قال:

- يا أحبائي سامحوني.. خدعتكم..

ثم عاد يجأر بما هز كل ما في الحجرة وهزنا:

- .. العلم دمار.. العلم هلاك.. العلم معضلة..

وهبط من فوق كرسي الدرس وطاف يصيح بأرجاء الحجرة:

- .. الهندسة عار .. الفيزياء دمار .. والكيمياء خراب.. الكيمياء خراب.. الكيمياء خراب..

وظل يكررها حتى قلنا ليته يسكت.

دُهنٌ ذائبٌ في قِدرٍ متقد

(١)

شغلتُ نفسي بمسألة الكرامات، وعجبتُ لمُعلمي، يأتيها ويُنكرها.

وحدثَ أنْ جاء رجلٌ، لا يعرفني ولا أعرفه، وشأنه شأن كثيرين، طلب لقاء مُعلمي ليستفتيه أمراً مِن أموره، ولَمَّا كان مُعلمي في خلوته ما زال، فقد جلس ينتظره، وبعد تأمل منه لي سألني:

- تلميذه؟

أجبته:

- نعم.

فقلبَ شفته السفلية وأسقط قوسَها وجَعَّدَ أنفه وقال:

- ليس فيك مِن مُعلمكَ شيء يُقرنكَ به.

فابتأستُ مِن فوري ، ونالني غمٌّ ما دريتُ مِن أين هبط وافترسني.

(٢)

انزويتُ أحصي ما شاهدته بعينيَّ مِن كراماته المنكورة منه: مرافقة الغزالة له وملازمتها إياه، قبل أن يصرفها وليته ما صرفها مشيه فوق ماء البحر، ارتقاؤه شعاع الضوء الهابط مِن جبين الحسناء، مسحه على رأس الحية رداً على تحيتها له، استسلام الذئب له ، طيرانه بجناحي باشق من فوق سياج الجسر وإنقاذه الثائر المنتحر، جبره لساق النمر الجريح وإخراجه من الشرك ، كسره لعنفوان اللبؤة وركوبه صهوة الأسد وإردافي فوق ذات الصهوة. إنْ لم تكن هذه كلها كرامات، هي ومرور الأفعى الرقشاء مِن بين فخذيه دون أن تلدغه، فماذا عساها أنْ تكون؟.. وماذا عن عينيَّ وبقية حواسي؟.. كل ما ينكره رأيته رأي العين وعشته عيش المشارك..

عشته بكليتى وصار بعضاً من كيانى.. فلماذا خاطبنى كما لو كانت عيناى عمياوين وعقلى مخلاة محشوة بالأوهام؟!.. هل يمكن أنْ يكون كل هذا وهماً وخداع نفس؟.. ألم يحك لى هو عن تفلة شيخه التى استحالت نبعاً سيالاً، وعن نفخة فمه التى صدَّت مقذوفات الأعادى، ولمسة كفه التى أولدت البغى، وعن مباعدته بين فكى الحوت بمجداف من خشب ما أيسر أن يُقضم؟.. ألم أشاركه مشاهدة موتة هذا الشيخ واقفاً فوق الثبج؟.. أليست هذه كلها كرامات؟.. فما باله ينكرها وينفيها؟!

وبينما أنا منهمك فى تقليب الأمر فى ذهنى تقليب الدُهن الذائب فى القدْر المتقد، بَرَقتْ فكرة أرعدتنى، وما لبثتْ أنْ سيطرتْ علىَّ واحتوتنى، ومعها تضخمتْ قولة الرجل الذى لا يعرفنى ولا أعرفه «ليس فيك من مُعلمكَ شىء يُقرنكَ به» وطنَّتْ فى أذنى طنين الزنابير ودوَّتْ دوى النحل، فإذا بى أنهضُ من جلستى، وأخاطب نفسى، وأنطق بحزم ومضاء عزم: «سأحتذيكَ يا مُعلمى».

(٣)

سألنى مُعلمى:

- ما بكَ؟

أجبته:

- تأتى بالكرامات يا معلم وتنكرها، فماذا لو رُمْتُ الإتيان بما يماثلها أو يشبهها؟

عندئذ هز رأسه واحتوانى بنظرة ملؤها التحسر وتركني وترك المكان ولم يُعقب.

(٤)

جُبْتُ الصحراء طالباً مراتع الغزلان إلا أن قطعان الذئاب طاردتنى. طفتُ بأحياء الحرائر والغوانى وبحثتُ فى نوافذ البيوت عن عفيفة أو بغى

يشعُ الضوءُ مِن جبينها، فلم تر عيناى غير الإعتام. وقفتُ فوق سياج الجسر وجعلتُ من طير الماء هدفاً لى، وقلتُ سأقفز وأطير وألحق كباشق بهذا الطير إلا أننى سقطتُ فى النهر، ولولا النوتية لصرتُ طعاماً فى أمعاء الأسماك. وذهبتُ إلى الغابة، ودخلتها بالفعل، وإنْ هى إلا لحيظات حتى فررتُ مُسلْماً ساقىَّ للريح، ووجهى لخدشات الأغصان، وجسمى لوخزات الأشواك، من هوْل ضرضرة النمور وزئير الأسود وأصوات الكواسر وجوارح الطيور. وآخر ما فعلتُ ابتعتُ ثعبانا لأمارس سيطرتى عليه، غير أننى لم أجرؤ على فتح الجراب وإخراجه.

(٥)

تضعضعتُ، وأصابنى وَهَنٌ وضعفٌ شديدان.

تمنيتُ لو لجأتُ إلى مُعلمى، لو اعتذرتُ له والتمستُ عفوه ورجوتُ رضاه.. لكنه غاب عنى وما بان لى.

أمَضَّنى غيابه فبحثتُ عنه فى كل الأماكن التى ارتدناها، وتلك التى لم نرتدها. أضنانى اقتفائى لما ظننتها آثاره حتى لغبنى الظمأ إليه، وأوجدنى تشهى التمرغ فى فيوضاته. أين ذهبتْ آثاره؟.. أين اختفى واختفت أدلة وجوده؟.. اختفاؤه هذه المرة غير أى اختفاء سابق، فماذا أتيتُ ولم يحتمله؟.. أتكون مسألة الكرامات بهذا الثقل؟.. نظرة التحسر، آخر ما التقطه منه، تطحننى طحناً وتدكنى دكاً.. هل أغضبته إلى هذا الحد؟.. لكن لا يمكن لما عشته معه أنْ يكون وهماً. هل يمكن أنْ يكون وهماً؟.. أيكون سراباً؟.. أية خلخلة أحدثتها بغيابكَ يا مُعلمى؟.. أى اضطراب؟.. تتركنى لجهلى وعمائى وتمضى؟.. ألهذا الحد جُرمى لا يغتفر؟.. أخطأتْ.. بالتأكيد أخطأتُ.. أعترف بأننى أخطأتْ.. لكن تأديبكَ لى هذه المرة أعنف تأديب.. إيه يا مُعلمى، أين أنتَ؟.. أيعقل أنْ تهجرنى هكذا؟.. دون كلمة واحدة؟.. دون وصية واحدة؟.. دون عهد واحد؟.. كيف أصل إليكَ؟.. كيف لى أن أستمر

فى اتباعكَ وأنا أفتقد حتى آثار خطاك؟.. أيصح أن تختفى هكذا؟.. أين أنتَ الآن؟.. أتكون خيالاً مِن صنع أوهامى؟.. لكن ما اتصلنا به واتصل بنا مازال موجوداً.. يشهد عليكَ وعلى كراماتكَ.. كراماتكَ التى تقول إننى توهمتها.. كراماتكَ التى فشلتُ فى احتذائها.. أنتَ موجودٌ.. لكن أين؟.. أى اضطراب أوقعتنى فيه نظرة التحسر التى أحطتنى بها يا مُعلم؟.. أى بؤس أسلمنى له غيابك؟.. بل أى جنون وصلتُ إليه؟.. أى هوس؟.. وطفقتُ أخاطبه.. أخاطبُ الفضاءَ الضيق وأنادى الفضاء الوسيع «لا تسخط علىَّ يا مُعلم.. لا تسخط علىَّ أرجوك.. لا تسخط علىَّ وعُدْ.. عُدْ ولو بدون كرامات».

(٦)

احتجتُ إلى خلوة فاختليتُ، فلمَّا اختليتُ بكيتُ. وما دريتُ إلا أن صار بكائى نحيباً، عَلا فرَجَّنى ورَجَّ جدران خلوتى ، فإذا بالباب يُفتحُ وبمُعلمى أمامى.

- مُعلمى!..

بادرنى فاحتضننى.. بل بادرتُ فارتميتُ عليه.. ضممته وما أخليته.. اعتصرته.. أين كنتَ؟.. مِن أين جئتَ؟.. ماذا أغضبكَ منى؟.. أوحشتنى يا مُعلم.. لا.. لا تجبْ.. يكفى أنكَ معى.. يكفى أنْ أتنعم بقربى منكَ.. لا تتركنى ثانية يا مُعلم.. إنْ أغضبتكَ انهرنى.. اضربنى.. اجعلنى أمثولة لكل عابر.. لكن لا تتركنى يا مُعلم.. لا تتركنى.

ببطء ربَّتْ على ظهرى. مواسياً ربما، داعماً ربما، وربما ليؤكد لى أنه ما تركنى إطلاقاً: بعدها غطنى غطة آلمتْ ضلوعى ، لكنها أراحتنى، غطنى ثم أخلانى، أخلانى وقال بالطريقة التى اعتدتها منه لكن بحنو الشفيق:

ـ جميل أنْ تطلب الخلوة، لكن الأجمل أنْ تلزمَ الناس.

فابتسمتُ وابتسم معي.

(٧)

عند ضفة النهر سألني:

ـ فيم شرودكَ؟

زفرتُ:

ـ الكرامات يا مُعلم.

فعاتبني بنظرة أفقتُ على إثرها إلى سوء ما فعلتْ، وغاص قلبي في جوفي خشية أنْ يعاود مفارقتي ، لكنه بَشَّ وبسط أحد كفيه فجاء طائرُ وحط عليها وراحَ ينقر حَبًا مستقراً فيها.

سألني:

ـ هل ترى هذه كرامة؟

انبريتُ:

ـ نعم.. فقد حط على كفكَ فور بسطكَ لها يا مُعلم، والتقط منها حَبًا ما كنتَ تحمل منه شيئاً.

فابتسم وقال:

ـ فأمَّا الطائر فكان هو الأقرب إلينا من طيور النهر، وأمَّا الحَبُّ....

وأكملَ بنظرةٍ وجّهَها إلى الأرض حيث يجلس، فإذا بكومةٍ من ذات الحَبِ الذي يلقطه الطائر مِن كفه، وعليها أخاديد أصابعه.

غَصَّني إحساسي بالغفلةِ ، غير أنني كابرتُ:

ـ فلماذا لم يلتقطه من مكانه قبل قدومنا؟.. وماذا في كفكَ سوى الكرامة ليلتقطه منها؟

رَدَّ بنفس الابتسامة:

- وما أدراكَ لعله كان يلتقطه قبل قدومنا.

فشعرتُ بخزى العالم كله يعتريني.

(٨)

فى الزقاق الضيق قال لى مِن تلقاء نفسه:

- لا تخف مِن العويص، ولا تفر مِن الرمز.

وفى الطريق العريض قال:

- ائتنس بالخطر ائتناس الرضيع بالثدى المدرار.

وفى الميدان المكتظ قال:

- مكابدة الخلطة أيسر من مداراة العزلة، والاجتماع يفضل الانفراد، والاختلاف ضرورة.

وأمام المبنى الحكومى قال:

- إنْ خِفتَ أمراً فقع فيه، فمضار الوقوع أهون مِن مضار الفرار.

وتأمل قدَحَه فى المَشْرَب وخاطبنى:

- لكَ بصرٌ وسمعٌ ولسان وأنف، ويدان وقدمان، وعقل وفؤاد، فاستخدمها ولا تعطل منها شيئاً.

ثم ثبَّتَ بصره فى بصرى وقال بواحدةٍ مِن اللهجات التى اعتدتها منه:

- ما عَطِلَ ضَمَرَ.

وعندما أخذنى إلى البحر الذى ثارت عنده هواجسى، أوقفنى حيث كان أناسٌ يغوصون وآخرون يطفون ثم قال:

- كنْ الأمضى عزماً والأقوى شكيمةً، تكنْ الأعمق غوصاً والأظفر بالدر..

عند هذا الحد خامرنى يقين أنه إنما يُعْلِمنى بشروط الكرامات، أو ما يظنه الناس كرامات، لكنه واجهنى أمام الصحراء الشاسعة وأمسكَ بكتفى وفاجأنى بقوله:

ـ انزع عنكَ وهم الكرامات، ولا تترك الناسَ للغيِّ والضلالات..

ثم ولّى وجهه شطر الأفق البعيد وقال:

ـ لا تحبس ما أخذته عنى ولا تقبضه..

واستدار نحوى وأكمل:

ـ انظر إلى ما أعطيتكَ نظرَتكَ إلى العِطر.. قدَرُه أنْ يُطلق لا أن يظل حبيس القوارير وإنْ حَسُنَتْ.

وكانت الغزالة قد انبثقتْ مِن بين الكثبان وجاءت من تلقاء نفسها. تمسحت بمُعلمى هى الغزالة التى لم يفارقنى طيفها. غزالتنا. بل غزالة مُعلمى. غزالته وحده. غضبها إذن قد انفثأ. إلى جواره وقفت، وبه التصقت. صحيحة رشيقة، بلا جرح واحد أو نزف عادت. أدارت رأسها نحوى فرأيتنى مطوعاً على لمعة العين التى تولجهنى بها. «آه أيتها الغزالة الحبيبة. ملت نحوها وهممت بمعانقتها وتقبيلها، إلا أنها نفرتْ منى وأعرضتْ عنى لحظة أن قال مُعلمى ما باغتنى وألجمنى وسمرنى فى وقفتى تسميراً. قال:

ـ الآن لكل منا طريقه وإنْ جمعتنا البقعة الواحدة.

ثم غادرنى والغزالة، وأخذا يغوصان فى صفرة الصحراء ويغوصان، إلى أنْ اختفيا تماماً عن عينىّ، وأنا فى مكانى مبغوتٌ وملجومٌ ومُسَمَّر.

بعد أن هجرنى مُعلّمى

آلمتنى هجرة مُعلمى لى، فضربتُ فى الأرض ضربَ هائمٍ.

رأتنى امرأةٌ كفلقةِ القمر فنادتنى:

- أيهذا الفَتـىَ..ادنُ.

عجبتُ لنعتِها إياى بالفَتـى فقد خلع عنى معلمى فتوتى قبل أنْ يُخلينى.

أعادتْ مناداتى:

- ادن أيهذا الفَتـى.. ادن.

فلمَّا دنوتُ قالتْ:

- أرنى بعضَ ما علِمْتَ.

آيساً قلتُ:

- ما أنا بعالم.

فهزتنى حتى كادتْ خِرقتى تسقطُ عنى:

- تواضـعُ مع عِلْمٍ شيمةَ قد تُرضى الكافة إلاى..

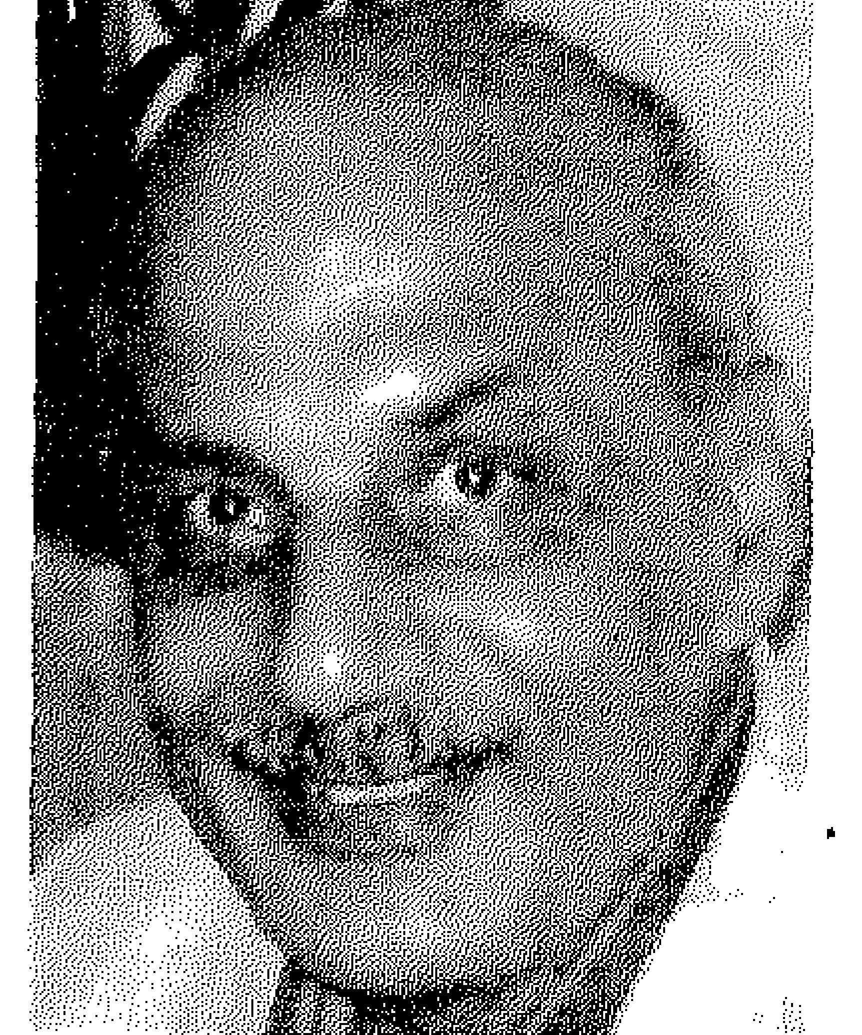
من فرط عِيِى تركتها وانصرفتُ فاعترضتنى:

- يمكن عمل الكثير مِن علمٍ قليل.

ثم فاجأتنى بشلح ثوبها، فجفلتُ ورجعتُ القُهْقُرى، فيما أخذتْ تُقهقه حتى رأيتُ الدمـوعَ تسيلُ من عينيـها. لمَّا توقفتْ سَمَّرَتْ بؤبؤيـها فى بؤبؤى وقالتْ:

- يا أخرق.. لا تجفلن مِن موطن نجاتكَ.

وبرفق مَدَّتْ ذراعيها وأمسكتني، وبمهلٍ شديد راحتْ تُدني جَسَدَها البَضَّ مِنِّي، وأنا مشدودٌ مُتصَلِّب. لَمَّا مستني طراوتها، استعذبتُ النعومة والدفءَ المنسربين إلى جسدي، وبكامل وعيي وإدراكي رحتُ أبحثْ في جسدِها عن موطن نجاتي. وأجمل ما رأيتُ رشأ رشيقاً جاءني مسرعاً وراح يتمسح بساقي دون أن يعطلني عما أفعل.



للمؤلف

فى مجال الإبداع الأدبى

للكبار:

● أنشودتان للحرب ، مسرحيتان ، أدب الجماهير ١٩٧٢م .

●الضحك ، قصص قصيرة ، مواقف أدبية ، ١٩٨١م

●تنويعات بحرية ، قصص قصيرة ، مواقف أدبية ، ١٩٨٢م

● صخرة التامل ، قصص قصيرة ، المستقبل للطباعة والنشر ، ١٩٨٩م

● غير المالوف ، (ط١) ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٥م.

● حدود الاستطاعة ، قصص قصيرة ، المستقبل للطباعة والنشر ، ١٩٨٩م.

●خبرات أنثوية ، قصص قصيرة ، مركز الحضارة العربية ، ١٩٩٨م.

●لا تبحثوا عن عنوان .. إنها الحرب .. إنها الحرب ، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩م.

●غير المالوف ، (ط٢) قصص المستقبل للطباعة والنشر ، ١٩٩٩م.

●وتر مشدود، قصص قصيرة ، مركز الحضارة العربية ، ١٩٩٩م .

●عربة خشبية خفيفة ، قصص قصيرة ، المستقبل للطباعة والنشر ، ٢٠٠١م.

●غير المالوف ، (ط٣) ، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٢م.

●الديدامونى ، مسرحية ، قصص قصيرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٥م .

●مراقيء السـرد ، (إعداد) ، قـصص قـصيرة ، الهيـئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٥م.

●أغاريد النوارس ، (إعداد) ، قصائد ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٥م.

●حكايات عن البحر والولد الفقير ، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٧م.

وللأطفال :

●بهجة التخيل : رحلة فى عالم السيناريو كتاب تعليمى ، ٢٠٠١م.

●«شلة» المتـهورين السـعداء، كتـاب قطر الندى ، العـدد ١٦٠، ٢٠٠٧م، قصص قصيرة إقليم القناة وسيناء الثقافى

●كنز قناة السويس الذهبى ، قصص قصيرة كتاب قطر الندى ، العدد ٢٠١ ، ٢٠٠٩م.

بالإضافة إلى عدد من القصص والسيناريوهات المصورة للأطفال نشرت فى مجلات : العربى الصغير بالكويت ، قطر الندى وعلاء الدين بالقاهرة.

وفى هويات المدن :

– المدينة الاستثناء : قراءة مورفولوجية لمدينة بورسعيد ، سلسلة كتاب هوية المكان ، العدد الثالث ، الهيـئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٧م.

* له عشرات من الأبحاث والدراسات والمقالات الثقافية : علمية ، أدبية ، سياسية ، واجتماعية .

* حصل على العديد من الجوائز الأدبية والعلمية والمهنية ، ونال الكثير من الكؤوس والدروع والميداليات وشهادات التقدير .

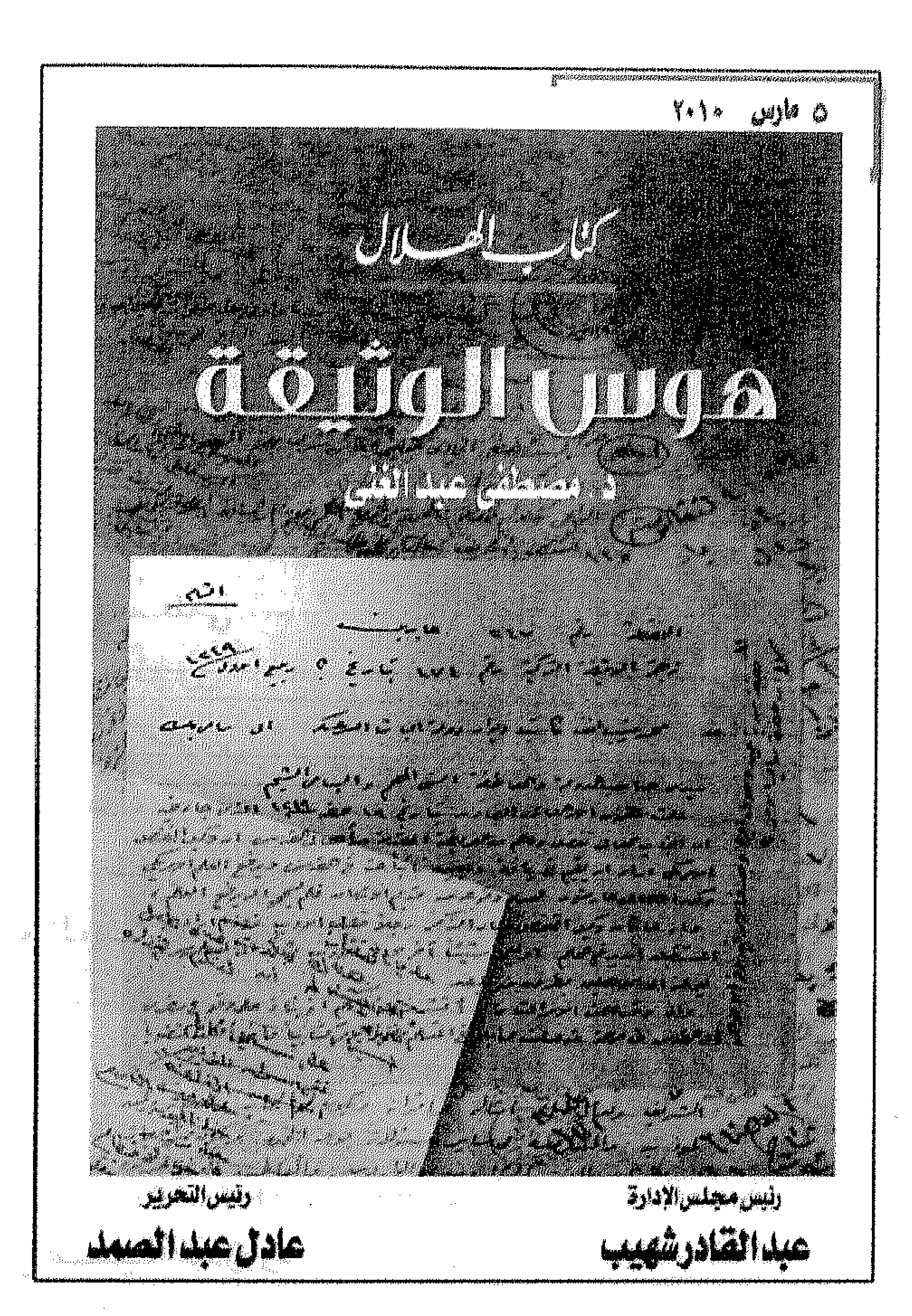
* تم تكريمه فى أكثر من محفل .

تحت الطبع :

* نبض المرايا (قصص وامضة).

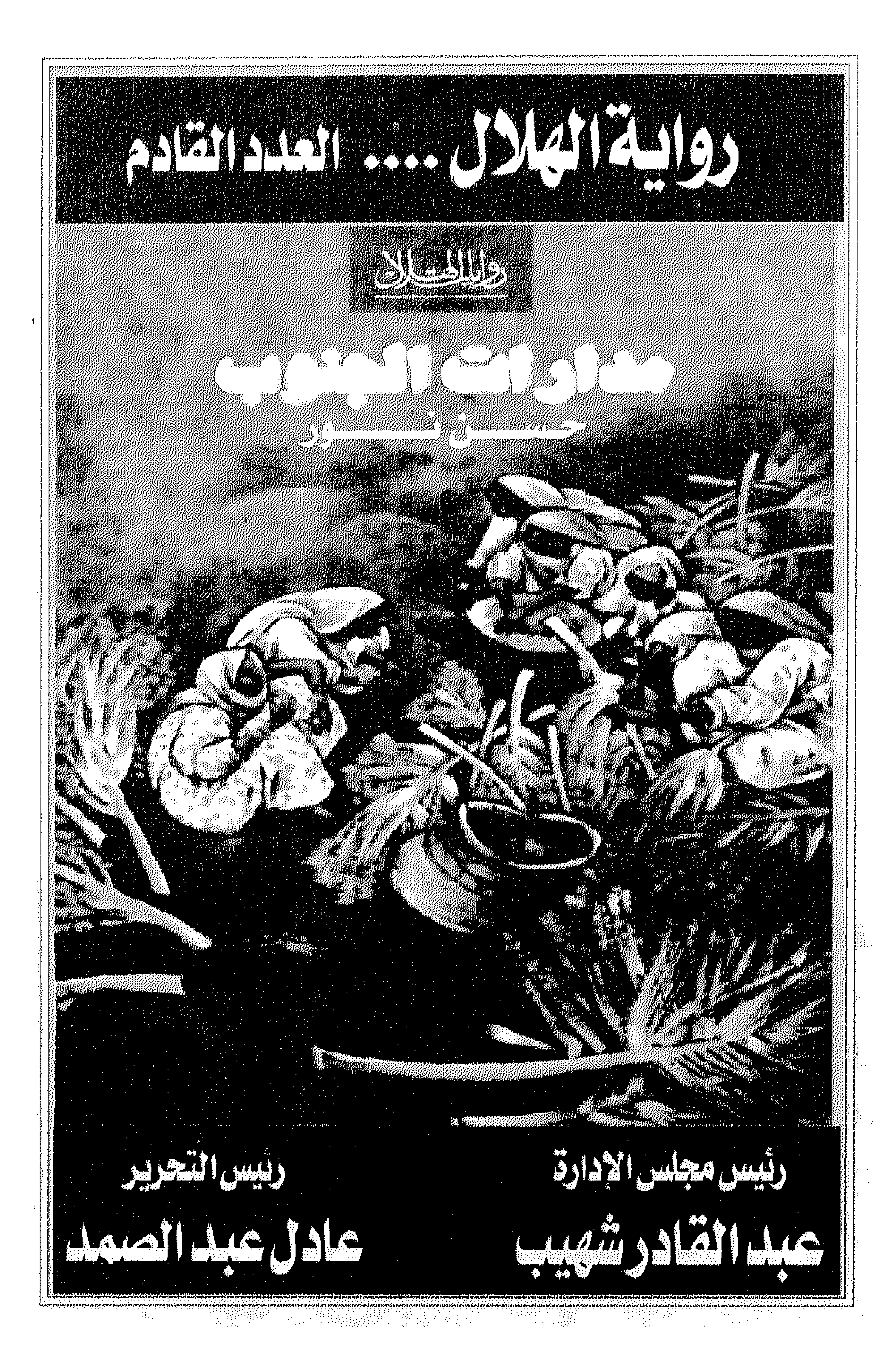
المحتويات

٥ مارس ٢٠١٠



رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد



رواية الهلال .... العدد القادم
روايات الهلال
مدارات الجنوب
حسن نور
رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب
رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

هذه الرواية

بين يديك عزيزنا القارىء رواية تختلف عن الروايات التى ألفتها، فهى تخلو من العقد التى طالما أجهدت نفسك من أجل تتبع خيوطها وإيجاد حلول لها، أو مضاهاة الحلول التى أوردها المؤلف على المنطق أو قانون النص الروائي، وحبكتها أيضا هى الأبسط بالقياس إلى الحبكات التى صارت من فرط نمطيتها مثيرة للملل والتثاؤب، وعلى بساطة هذه الحبكة فهى محتشدة بالمواقف، مكتنزة بالأفكار، وموّارة بالتحولات الإنسانية التى تعترى الفرد وتحرك الجموع، ومع أنها تتضمن ككل الروايات أحداثا وأشخاصاً وعلاقات وصراعات، فإن الرؤية الحداثية حكمت بنيتها وفككت عناصرها ونظمتها باتجاه خطى ممتد ومنسرح بامتداد الحياة وانسراحها .

شخصيتان بشريتان احتكرتا مسارح الأحداث فى الرواية، معلم وتلميذ ومعهما غزالة لا تنى تظهر وتختفي. غزالة ربما تشابه غزالة ابن عربى ومن لف لفه، لكنها فى الرواية هذه تتمتع بصفات تجعلها أقرب إلى الحياة منها إلى الفكرة المجردة. شخصية المعلم هى محور الرواية ومركزها، شخصية تذكرك عزيزنا القارىء بـ (نبى) جبران خليل جبران، و(زرادشت) فردريك نيتشه، و(حلاج) صلاح عبدالصبور، ومشاهير الصوفيين والمصلحين الإسلاميين، لكنها تختلف عن هؤلاء جميعاً بعصريتها واهتمامها بالحاضر الأنى، وبكونها ليست منفتحة فقط على قضايا الوجود ومشكلاته، وإنما منتمية أيضا لقضايا العدل والحرية والتقدم. هى بحق شخصية فريدة فى رواية ممتعة استعانت بالمنجز الصوفى الإسلامى بغير ما تقنّع أو ادعاء تلبس، وجمعت فى معمارها ما بين العصرية والأصالة ، عصرية مدرسة الباوهاوس الخالية من الزركشة، وأصالة التراث الفنى الإسلامى الرصين، أما اللغة فمفعمة بسحر الإشراق الذى يقف بك عزيزنا القارىء على الحافة بين الوعى والخيال، ويا لها من وقفة خطرة وممتعة فى نفس الآن.

الهلال

مارس 2010 الثمن 2 جنيه

- العدل المطلق في الثقافة العربية
- ليست فتنة طائفية
- العلاج بالخلايا الجذعية

حول المؤتمر المنتظر

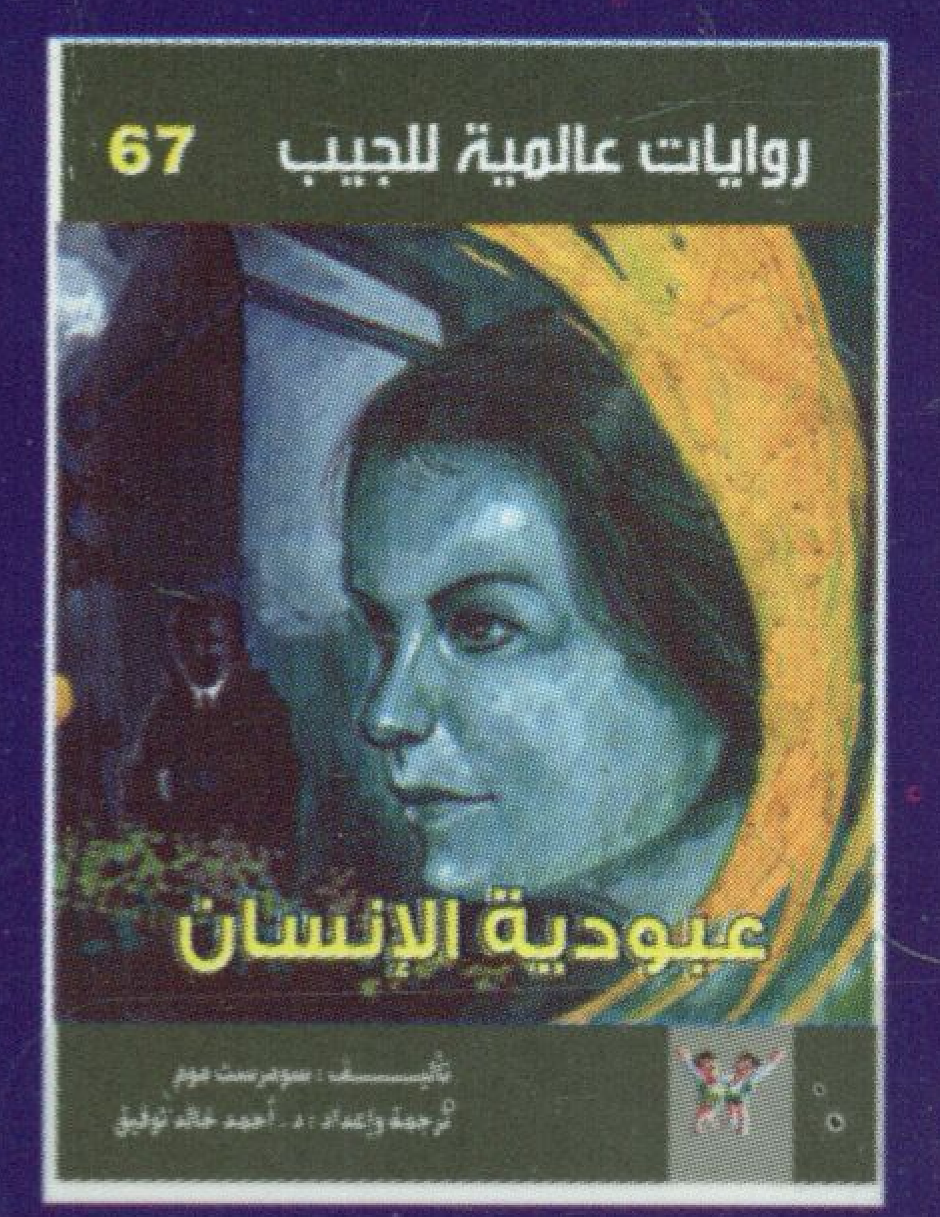
ماذا تريد مصر من المثقفين؟

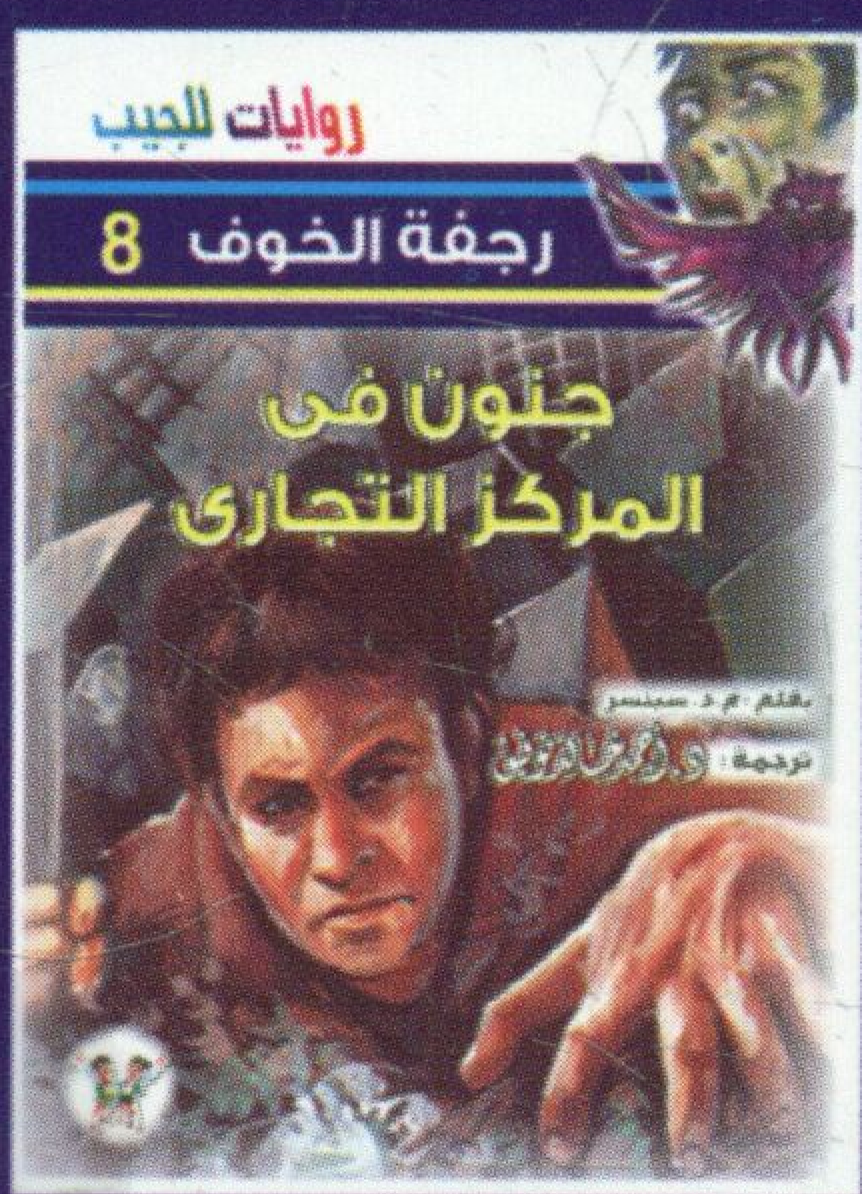
رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

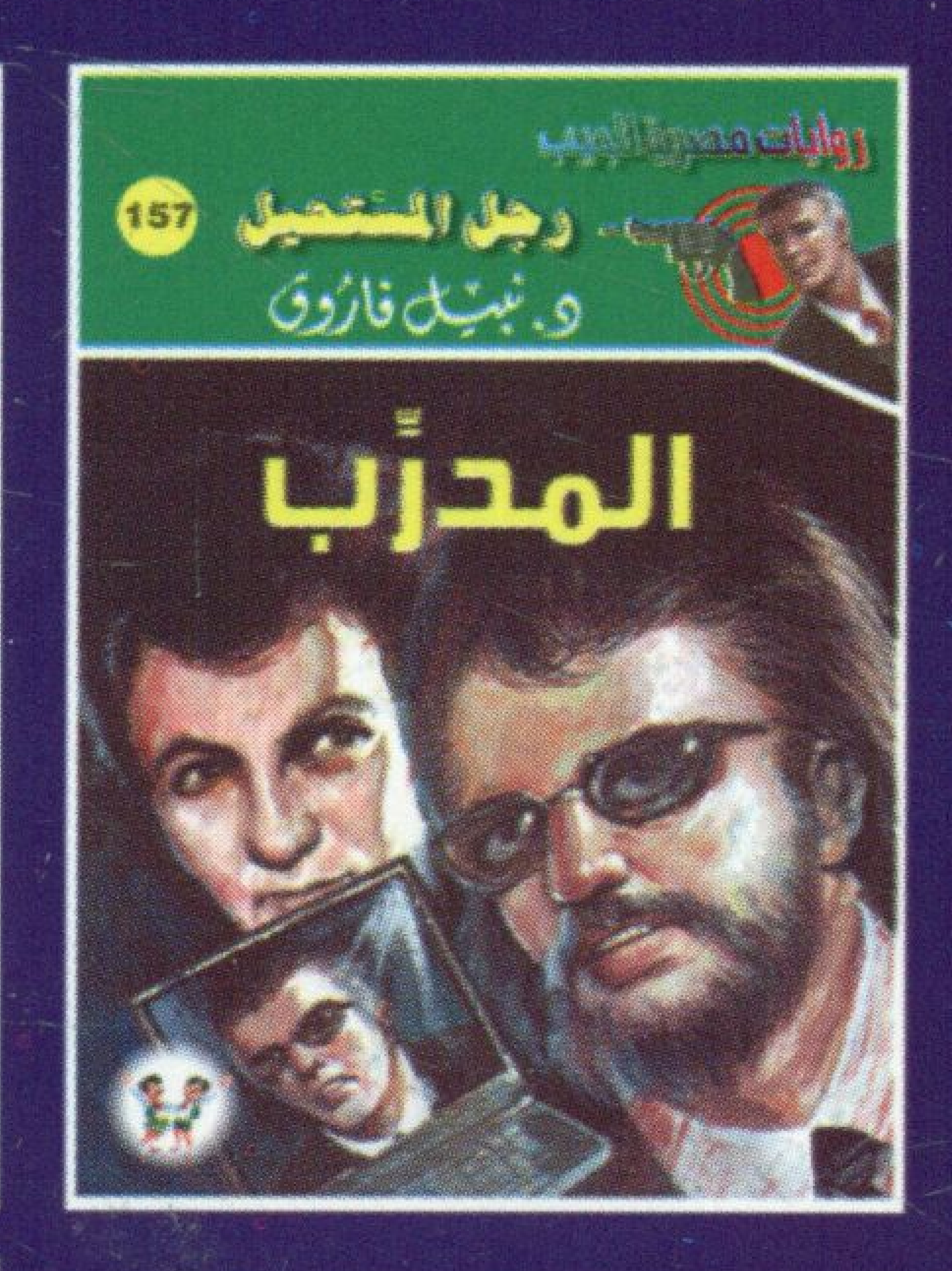
رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

روايات مصرية للجيب

إنها بالفعل شىء ملائكى رائع

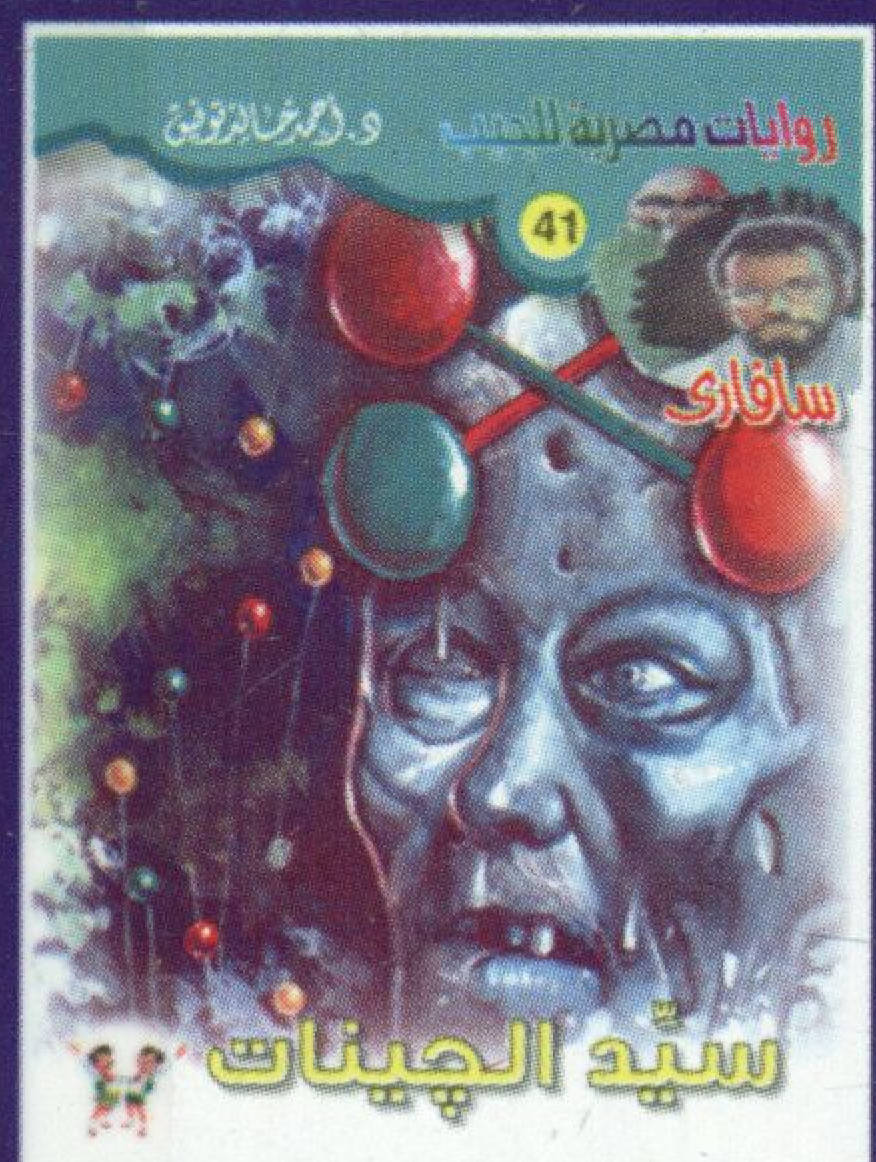








Bibliotheca Alexandrina
0962066



روايات مصرية للجيب

معشوقة شباب
العالم العربى
من مشرقه
إلى مغربه

شلال متدفّق من الروايات لايهدأ ، ولا يخمد .. يستولى على ألباب القراء ، ويبحر بهم إلى آفاق رائعة من الثقافة ، والمتعة ، والإثارة

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10 ، 16 ش كامل صدقى الفجالة
4 ش الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة - ت : 26823792 - 25928202 - 22586197
فاكس - 202/25966650 ج.م.ع ، 4 ش بدوى محرم بك - الإسكندرية ت : 03/4970840 - 03/4970850